بـــلاد الـــروم

قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه

اللواء الركن محمود شيت خطاب

(عضو المجمع)

الموقع والحدود

كان المسلمون يسمون أقاليم الدولة البيزنطية في جملتها : بلاد الروم • ولفظ : الرومى أي الروماني في العصور الاسلامية الاولى ، كانت ترادف عند المسلمين كلمة : المسيحي أو النصراني • سواء كان الموصوف بها من اليونان أو اللاتين •

وكانوا يسمون البحر الابيض المتوسط : بحر الروم ، اسماً لاقرب الاقاليم المسيحية من بلاد الاسلام •

ومن ثم صارت بلاد الروم اسماً : لآسيا الصغرى عند العرب ، وهي البلاد العظيمة التي انتقلت نهائياً في نهاية السنة المئة الخامسة الهجرية (القرن الحادي عشر الميلادي) الى أيدي المسلمين باستيلاء السلاجقة عليها •

وكانت الحدود بين بلاد المسلمين وبلاد الروم في أيام بنى أمية وبنى العباس ، بل حتى قبل أن يقضي المغول القضاء المبرم على الدولة العباسية في بغداد بما ينيف على قرن ونصف قرن ، تتألف من سلسلتى جبال طوروس وجبال طوروس الداخلة (أنتى طوروس) • وكان يحد هذه الحدود ويحميها

خط طويل من القلاع التي تعرف بالثغور ، يمتد من (ملطية) على الفرات الأعلى ، الى (طرسوس) بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكان المسلمون يفتحون هذه القلاع تارة ويحتلها الروم تارة أخرى .

وتنقسم هذه القلاع الى مجموعتين ، احداهما تحمى الجزيرة ، وتسمى : ثغور الجزيرة ، وهي الشمالية الشرقية ، والثانية تحمي الشام ، وتسمى : الثغور الشامية ، وهي الجنوبية الغربية .

وكان من ثغور الجزيرة : ملطية ، وزبطرة ، وحصن منصور ، وبهنسا ، والحدث[1] . ثم مرعش ، والهارونية ، والكنيسة وعين زربة (عين زربى) ، وهي الثغور الشامية ، أما الثغور الشامية التي بالقرب من الساحل لخليج الاسكندرونة فهي : المصيصة ، وأذنة ، وطرطوس .

يحدها من الغرب : بحر الروم وخليج القسطنطينية وبحر القرم ، ومن الجنوب بلاد الشام والجزيرة ، ومن الشرق ارمينية ،ومن الشمال بلاد الكرج وبحر القرم .

الثغور الشامية

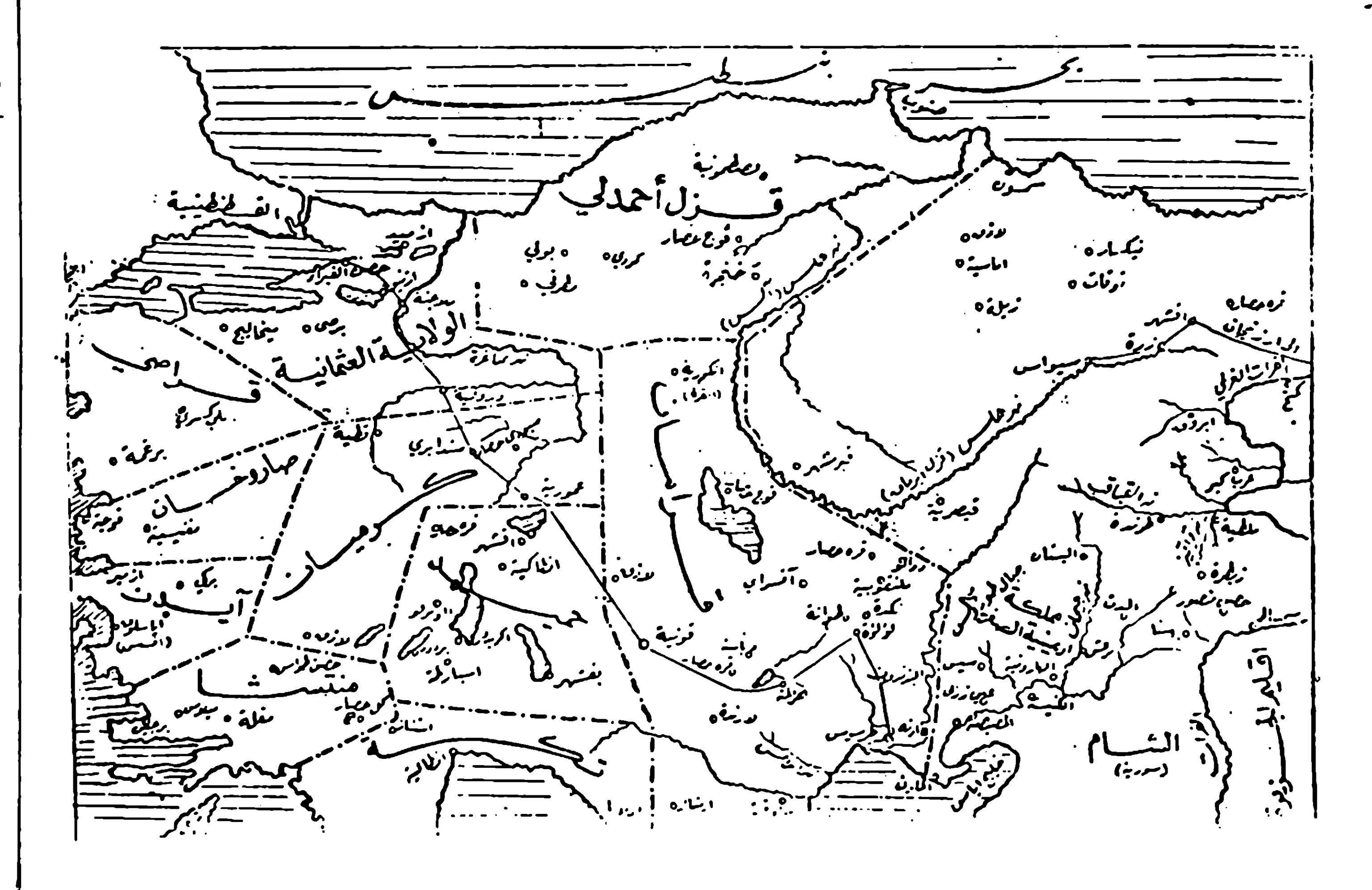
١ ــ مَرْعش :

سماها الروم : (مراسيون Marasion) ، ويقال انها قامت في موضع جرمانيقية .

وهي مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم ، لها سوران وخندق ، وفي

---

(١) انظر ما ورد عن هذه الثغور في بحث : بلاد الجزيرة قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه .


بحر نيطس
قزل أحمدلي
الولاية العثمانية
قراصي
صاروخان
كرميان
آيدين
منتشا
قرامان
الشام
سيواس
قيصرية
قونية
سينوب
اماسية
توقات
اقليم الجزيرة

وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ثم حصّنها هرون الرشيد أيضا •

٢ ــ عين زَرْبَي = عين زَرْبَة :

بلد يشبه مدن الغور ، بها نخيل ، وهي خصبة واسعة الثمار والزروع والمراعي ، ولها سور مكين ، تقع في الجبل ، ذات قلعة مستعلية عنها ، وهي من الثغور من نواحي المصيصة •

٣ ــ الهــارونية :

مدينة صغيرة بالقرب من مرعش بالثغور الشامية في طرف جبل اللكام ، استحدثها هرون الرشيد ، وعليها سوران وأبواب حديد • وجبل اللــكام : اسم اطلقه البلدانيون المسلمون على سلسلة جبال أنتي طوروس •

٤ ــ الكنيســة :

بلد بثغر المصيصة ، ويقال لها : الكنيسة السوداء ، وسميت بالسوداء ، لأنها بنيت بحجارة سود ، بناها الروم قديما ، وبها حصن منيع قديم أخــرب فيما أخرب منها ، ثم أمر هرون الرشيد ببنائها واعادتهــا الى ماكانت عليــه وتحصينها ، وندب اليها المقاتلة ، وزادهم في العطاء ، بينها وبــين الهارونيــة اثنا عشر ميلا •

٦ ــ المصِّيصَة :

حصن على ساحل البحر قرب المصيصة ، سمى : المثقب ، لأنه في جبــال كلها مثقبة فيها كوى كبار ، وكان أول من بنى حصن المثقب هشام بن عبدالملك •

٦ ــ المصيصَــة :

مدينة على شاطيء جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم ، تقارب

طرسوس ، وهي من ثغور الاسلام ، ذات سور وخمسة أبواب ، فتحها عبدالله ابن عبدالملك وبنى حصنها على أساسه القديم ، ووضع فيها سكانا من الجنـد من أرباب البأس والنخوة ، وبنى فيها مسجدا فوق تل الحصن • وبعد وقت قصير من فتحها نشأ في الجانب الآخر من نهر جيحان (نهر بيرامس) ربـض أو ضاحية جديدة سميت : كفربيا ، بنى فيها عمر بن عبدالعزيز جامعا اتخذ فيه صهريجا ، ثم ان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أنشأ ربضا ثالثا في شرقي نهر جيحان يقال له : الخصوص ، وبنى عليه حائطا وأقام عليه باب خشـب ، وخندقَ خندقـا •

٧ ـ أذَنَـة :

بلد من الثغور قرب المصيصة ، تقع على نهر سيحان (نهر سارس) ، وهي مدينة خصبة عامرة حصينة •

٨ ـ طَرَسُوس :

مدينة من أهم مدن الثغور الشامية ، تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، بينها وبين أذنة ستة فراسخ ، عليها سوران وخندق واسع ، ولها ستة أبواب ، وهي تشرف على الدرب المشهور عبر طوروس •

وعني الخلفاء العباسيون الأولون ، ولاسيما المهدي وهرون الرشيد بتحصين طرسوس وشحنها بالرجال •

المـدن الأخرى

١ ـ العلايـا :

بلدة محدثة ، أنشأها علاءالدين أحد ملوك السلاجقة فنسبت اليـه ،

فقيل لها : العلائية ، ثم خففها الناس وقالوا : العلايا •

وهي بلدة صغيرة على بحر الروم ، وهي من فرض تلك البلاد ، وهي في الجنوب من أنطالية على مسيرة يومين منها ، عليها سور ، وهي كثيرة المياه والبساتين ، ومساحتها أصغر من انطالية •

٢ ــ أنطاليــة :

بلدة كبيرة من مشاهير بلاد الروم ، وهي حصن من حصون الروم المنيعة تقع على بحر الروم ، ولها بابان الى البحر والى البر ، والمياه جارية بداخل البلد وخارجه ، ولها بساتين كثيرة من المحمضات وأنواع الفواكه ، تقع غربي قونية وعلى مسافة عشرة أيام منها •

٣ ــ أنْقِـرَة :

اسم للمدينة المسماة : أنكورية ، وهي بلدة لها قلعة على تل عال ، وليس لها بساتين ولا ماء سارح ، وشرب أهلها من آبار نبع قريبة المدى ، وبين أنقرة وقسطمونية خمسة أيام : قسطمونية في الشرق والشمال ، وأنقرة في الغرب والجنوب •

وهي مدينة قديمة ، ورد ذكرها في شعر امرىء القيس ، كما ورد ذكرها في شعر أبى تمام الطائي أيضا •

٤ ــ عَموريَّـة :

بلدة كبيرة ، ولها قلعة داخلها حصينة ، وأكثر ساكنيها التركمان ، وبها بساتين قليلة ، ولها أعين ونهر ، وهي التي فتحها المعتصم الخليفة العباسي في سنة (٢٢٣ هـ) وفتح أنقرة بسبب أسر العلوية في قصة طويلة معروفة ، وكانت من أعظم فتوح الاسلام •

٥ ـ آقْشار = آق ْشَهِر :

من أنزه المدن ، وبها بساتين كثيرة وفواكه مفضلة ، تبعد عن قونيــة ثلاثة أيام شمالا بغرب •

٦ ـ قونِيــة :

مدينة مشهورة ، لها جبل في جنوبيها ، ينبع منه نهر ويدخل الى قونيــة من غربها ، ولها بساتين من جهة الجبل يقرب من ثلاثة فراسخ ، وبقلعتها تربــة افلاطون الحكيم ، ونهرها يسقى بساتينها ثم تصير مياهه بحــيرة ومروجا ، والجبال دائرة بها من كل جانب ، وتبعد عنها من جهة الشمال ، والفواكه بهــا كثيرة ، وهناك المشمش المعروف بقمرالدين •

٧ ـ قَيْسارِيَّة = قَيْصارِيَّــة :

بلدة كبيرة ذات أشجار وبساتين وفواكه وعيون تدخل اليها ، وداخلها قلعة حصينة ، وبها دار للسلطنة ، وهي منسوبة الى قيصر ، وفي شرقيها مدينة سيواس ، وبين قيسارية وأقصرا أربعة مراحل •

٨ ـ أقصرا = أقسرا :

بلدة في عرض آقشار وأطول منها ، كثيرة الفواكه ، تحمل منها الى قونية على العجل في بسيط من الارض كلها مراع وأودية ، بينها وبين قونية ثمــانية وأربعون فرسخا وكذلك من أقصرا الى مدينة قيسارية ، وبين أقصرا وقونيــة ثلاث مراحل •

وهي ذات أشجار وفواكه كثيرة ، ولها نهر كبير داخل في وسط البلد ، ويدخل الماء الى بعض بيوتها من نهر آخر ، ولها قلعة كبيرة حصينة في وسط البــلد •

٩ ــ هَرَقْلَــة :

بلدة في شرقي نهر ينزل من جبل العلايا الى آخر سنوب ، وهرقــلة تقع قرب البحر ، وفي شرقيها جبل الكهف ، ويقال : ان فيــه الكهف الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف •

١٠ــ أماســية :

بلدة كبيرة ، لها سور وقلعة وبساتين ونهر كبير ونواعير تسقى بهــا ، مشهورة بالحسن وكثرة المياه والكروم والبساتين ، بينها وبين سنوب ســتة أيام ، فيها معدن الفضــة •

١١ــ مَلَطْيــة :

بلدة ذات أشجار وفواكه ارصفها تحف بها جبال كثيرة الجوز ، وسائر الثمار مباحة لا مالك لها ، وهي قاعدة الثغور ، مسورة في بسيط من الارض والجبال تحف بها من بعد ، ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة يسقيها ويمــر بسور البلد ، وهي شديدة البرد ، تقع في جنوبي سيواس بينهما ثلاث مراحل، وفي شمالي زبطرة وبينهما مرحلة كبيرة •

وللطية أيضا قنى تدخل البلد وتجري في دوره وسككه •

١٢ــ سِيْواس :

وهي بلدة كبيرة مشهورة ، وبها قلعة صغيرة ، وهي ذات أعين ، والشجر بها قليل ، ونهرها الكبير يبعد عنها بمقدار فرسخ ، وهي في بسيط من الارض، المسافة بينها وبين قيسارية ستون ميلا ، تقع مدينة أرزن في شرقيها ، وسيواس شديدة البــرد •

١٣ـ تَوْقَـات :

بلدة صغيرة في لحف الجبل ، تقع بين قونية وسيواس ، ذات قلعة حصينة وأبنية مكينة ، بينها وبين سيواس يومان ، لها بساتين وأشجار وفواكه جيدة ، معتدلة في الحرارة والبرودة ، وهي شمالي سيواس •

١٤ـ أرْزَن :

مدينة مشهورة قرب خلاط ، وهي آخر بلاد الروم من جهة الشرق ، وفي شرقيها وشماليها منبع الفرات •

١٥ـ القسطَنْطِينيـة :

مدينة شهيرة جدا ، كانت عاصمة الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠م) ، وهي مسورة بسور حصين ، ارتفاعه مابين أربعة عشر قدما وعشرين قدما ، ومحيطها أكثر من أثني عشر ميلا •

١٦ـ مرج الأسقف :

موضع قريب من غرب بدنوس (البذندون) •

١٧ـ مَطْمُـورة :

بلد في ثغور الروم ، بناحية طرسوس •

١٨ـ ذو القلاع :

كانت قلعة مشهورة ، واسمها عند الروم تفسيره : الحصن الذي مـع الكواكب •

ويبدو أنهـا تطـابق : (سيديروبوليس Sideropolis) في بـلاد القبـاذق •

١٩ــ اللؤلؤة :

قلعة قرب طرسوس ، واسمها عند البيزنطيين : لولون ، ، سماها العرب لؤلؤة ، ليضفوا على اسمها معنى من المعاني •

٢٠ــ طُوانـة :

بلد بثغور المصيصة ، اسمها القديم : تيانا •

٢١ــ الصَفْصَـاف :

كورة من كور المصيصة ، ويرد ذكرها أحيانا : مدينة الصفصاف أو حصن الصفصاف ، وهي قرب لؤلؤة على طريق القسطنطينية •

٢٢ــ حصن الصقالبة :

حصن يقع في جنوبي البذندون ، وسمى باسم الصقالبة الذين فروا من البيزنطيين وعسكروا فيه • وكان مروان بن محمد آخر خلفـاء بني أمية قد جعلهم في هذا الحصن لحراسة الدرب •

٢٣ــ مَلَقونيَـة :

بلد من بلاد الروم ، قريب من قونية ، تفسيره مقطع الرحى ، لان من جبلها يقطع رحى تلك البلاد •

٢٤ــ أفْسوس :

بلد بثغور طرسوس في بلاد الروم •

٢٥ــ أنْطـاكِيَـة :

مدينة مشهورة تعتبر قصبة العواصم من الثغور الشامية ، وهي من أعيان

البلاد وأمهاتها ، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير •

ولها سور فيه ثلاثمائة وستون برجا من أبراج المراقبة ، وشكل البلد كنصف دائرة ، قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل الى قمته ، وفي رأس الجبل دار السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة ، وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب •

وبين أنطاكية والبحر نحو فرسخين ، ولها مرسى في بليد يقال له : السويدية ترسى فيه المراكب ، فترفع الأمتعة الى أنطاكية على الدواب •

٢٦ـ أطْرابزُنْدَة = طرابزون :

مدينة من أعيان مدن الروم على ضفة القسطنطينية الشرقي ، وهو المعروف ببحر بنطس (البحر الأسود) • والى هذه المدينة منتهى جبل القبق ثم يقطعه البحر ، وهي مشرفة على البحر وماؤه محيط بها كالخندق محفور حولها بأسرها ، وعليه قنطرة اذا دهمهم عدو قطعوها ، ولها اقليم واسع ، ومقابلها مدينة كراسنده على ساحل هذا البحر الغربي ، وولايتها كلها جبال وعرة ، وهي من أعمال القسطنطينية •

وهي أجل ميناء ، كانت تجلب اليها السلع من القسطنطينية وتحمل منها الى بلاد الاسلام • وكان التجار العرب ووكلاؤهم ينقلون السلع منها عبر الجبال الى ملطية وغيرها من مدن الفرات الأعلى ، وأخص هذه السلع : ثياب الكتان اليوناني ، وثياب الصوف والديباج والأكسية الرومية ، وكلها كان يجلب بحرا من الخليج الى البسفور •

الجبـال والأنهار

١ ـ الجبـال :

بلاد الروم ، أو ما يطلق عليها الجغرافيون المحدثون اسم : آسيا الصغرى (تركيا الحديثة) ، عبارة عن شبه جزيرة عظيمة مكونة لهضبة تحدها الجبال ، وتنحدر على وجه العموم نحو البحر الأسود (٢) .

وتقطع هضبة آسيا الصغرى سلسلة بُنْتِك في الشمال وجبال طوروس في الجنوب (٣) .

وجبال بلاد الروم المهمة هي : طوروس ، وأنتى طوروس ، وهما سلسلتان جبليتان كانتا الحدود بين بلاد المسلمين والروم في أيام بني أمية وبني العباس، وكان يعين هذه الحدود ويحميها خط طويل من القلاع تعرف بالثغور ، يمتد من ملطية على الفرات الاعلى الى طرسوس بالقرب من البحر الابيض المتوسط، ومن أهم هذه الثغور : المصيصة ، وأذنة ، وطرسوس .

وجبل اللكام اسم أطلقه البلدانيون المسلمون على سلسلة جبال أنتى طوروس (٤) ، وقالوا في وصفه : «الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس » (٥) ، ثم يمتد الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الخزر ، فيسمى هناك جبل القبق (٦) ، وهذا يتصل بجبال القوقاز

(٢) الجغرافية العمومية ـ اسمذارد بالاشتراك ـ القاهرة ـ ١٩١٩ ـ ص (١٨١) .
(٣) الجغرافية العمومية ـ (١٦٩) .
(٤) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٢) .
(٥) معجم البلدان (٧ / ٣٣٧) .
(٦) معجم البلدان (٧ / ٣٢٠) .

الممتدة شمالا وبجبال هندكوش التي تتصل بجبال هملايا [٧] •

ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة ، سلك المسلمون اثنين منها بوجه خاص في غزواتهم السنوية لبلاد الروم •

الدرب الأول : درب الحدث ، وهو في الشمال الشرقي ، وكان من مرعش فشمالا الى (أبلستين Ablastin) ، وقد عرفت هذه المدينة بـ : (البستان) ، وهي : (أبلسثا البيزنطية Ablastho) أي (عربسوس اليونانية Arabissus) ، وكان يحمى هذا الدرب حصن (الحدث Adatha

والدرب الثاني : وكثيرا ماكان يسلك في الأزمنة القديمة ، وهو الدرب الضارب شمالا من طرسوس ، ومنه يأخذ الطريق العام الى القسطنطينية ، وكان هذا الطريق هو الذي يسلكه سعاة البريد وتمر منه القوافل والوفود ، كما أنه الطريق التي تتبعه موجات المحاربين من المسلمين والنصارى ، وكان هذا الدرب يعرف في قسمه الجنوبي بدرب السلامة • وقد وصفه ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك ، فقال : «من طرسوس الى العليق اثنا عشر ميلا ، ثم الى الرهوة ــ أي المكان المنخفض ولعلها : مبسكرينة Mopsukrene القديمة ــ ثم الى الجوزات اثنا عشر ميلا ، ثم الى الجردقوب سبعة أميال ، ثم الى البذندون Podandos سبعة أميال ، ثم الى معسكر الملك على حمّة لؤلؤة ــ لولون Loulon ــ والصفصاف عشرة أميال ــ قرب فوستينوبوليس Fanstinopolis ــ وتصير الى معسكر الملك وقد قطعت الدرب ــ النهاية الشمالية من الدرب الذي اخترق الجبل ــ وأصحرت • ومن معسكر الملك الى وادي الطرفاء اثنا عشر ميلا ، ثم الى منى

(٧) الجغرافية العمومية (١٦٩) .

عشرون ميلا ، ثم الى نهر هرقلة ــ وهرقلة هي أراكيلة الحديثة وهركلية عند الروم Heraclia ــ اثنا عشر ميلا ، ثم الى اللبن ثمانية أميال ، ثم الى رأس الغابة خمسة عشر ميلا • ثم الى المسكنين ستة عشر ميلا ، ثم الى عين برغوث اثنا عشر ميلا، ثم الى نهر الاحساء ــ أي النهر الذي تحت الأرض ــ ثمانية عشر ميلا ، ثم الى ربض قونية ــ ايكونيوم Iconium ثمانية عشر ميلا ، ثم الى العلمين خمسة عشر ميلا ، ثم الى ابرومسمانة عشرون ميلا ، ثم الى وادي الجوز اثنا عشر ميلا ، ثم الى عمورية ــ آموريون Amorion ــ اثنا عشر ميلا » • وطريق آخر : «من العلمين الى عمورية يبدأ من العلمين الى قرى نصر الاقريطي خمسة عشر ميلا ، ثم الى رأس بحيرة الباسليون ــ بحيرة الاربعين شهيدا ــ عشرة أميال ، ثم الى السند عشرة أميال، ثم الى حصن سنادة ثمانية عشر ميلا ــ وسنادة هي سنادس Synades ثم الى مغل خمسة وعشرون ميلا ، ثم الى غابة عمورية ثلاثون ميلا ، ثم الى قرى الحرّاب خمسة عشر ميلا ، ثم الى صاغرى ــ وهو Sangarius نهر عمورية ميلان ، ثم الى العلج اثنا عشر ميلا ، ثم الى فلامى الغابة خمسة عشر ميلا ، ثم الى حصن اليهود اثنا عشر ميلا ، ثم الى سندابرى ــ سنتابريس Santabaris ثمانية عشر ميلا ، ثم الى مرج حمر الملك في دروليه ــ دوريليوم Dorylaeum خمسة وثلاثون ميلا ، ثم الى حصن غروبلي خمسة عشر ميلا ، ثم الى كنائس الملك ــ وهي Basilica of Anno Comnena ثلاثة أميال ، ثم الى التلول خمسة وعشرون ميلا ، ثم الى الأكوار خمسة عشر ميلا ، ثم الى ملاجنة خمسة عشر ميلا ــ وملاجنة هي Malagina ثم الى اصطبل الملك خمسة أميال ، ثم الى حصن الغبراء ــ وهي كيبوتس Kibotos ــ ثلاثون ميلا ، ثم الى الخليج ــ وهو بوسفور

القسطنطينية Bosporus ـ أربعة وعشرون ميلا ، ونيقية بازاء الغبراء (أي جنوب الغبراء)[8] .

وهذا هو مايطلق عليه الدرب ، واذا أطلق هذا اللفظ أريد به مابـين طرسوس وبلاد الروم لأنه مضيق كالدرب ، واياه عنى امرؤ القيس بقوله :

بـكى صـاحبي لمـا رأى الدرب دونـه
وأيقـــن أنـــا لاحقـــان بقَيـصرا

فقلـت لـه لا تبـك عينـك انمـــا
نحـاول مُلـكاً أو نمـوت فنُعذرا[9]

ولجبـال طورس وأنتى طورس فروع يذكر قسـماً منها البلـدانيون المسلمون بأسماء مختلفة ، وهي عبارة عن فروع من طورس وأنتى طورس .

٢ ـ الأنهـار :

أهم أنهار بلاد الروم نهران هما : سيحان وجيحان ، وقد أطلق المسلمون على نهر (سارس Sarus) اسم نهر سيحان ، وأطلقوا على نهر (بيرامس) اسم نهر جيحان ، وكانا حداً مائياً بين بلاد المسلمين وبلاد الروم .

ومنابع هذين النهرين في المرتفعات شمال ارمينية الصغرى ، وكان نهر جيحان الذي كان يقارب نهر الفرات في الكبر ، وتسميه العامة : جهان ، يسير من الشمال الى الجنوب بين جبال في حـدود الروم ، حتى يمر بالمصيصة من

(٨) المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٠٠ و ١١٠ و ١١٣) وقد جاء في (١٠٢ ـ ١٠٣) وصف طرق تختلف بعض الشيء عن هذا الطريق ، وانظـر كتاب بلدان الخلافة الشرقية (١٦٦ ـ ١٦٧) .

(٩) معجم البلدان (٤ / ٤٨) .

الهرمل) بين جوسية [١٤] والراس ويمر بوادٍ هناك ، وينبع من هنـاك غالب النهر المذكور من موضع يقال له : (مغارة الراهب) • ويسير شـمالا حتى يتجاوز جوسية ويصب في بحـيرة : قَدَس[١٥] ، في غربي حمص ، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حمص الى : الرستن [١٦] ، الى حماة ، ثم الى شيزر[١٧] ثم الى بحيرة : أفامية • ثم يخرج من بحيرة أفامية ويمر على : دركوش ، الى جسر الحديد ، وذلك جميعه في شرقي جبل اللكام •

فاذا وصل الى جسر الحديد ، ينقطع الجبل المذكور هنـاك ، ويستدير النهر المذكور ، ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً ، ويمر على سـور أنطاكية حتى يصب في بحر الروم عند السويدية [١٨] •

ويصب في نهر الأرنط المـذكور عدة أنهر ، منهـا نهر منبعه من تحت أفامية ، يسير مغرباً الى بحيرة أفامية ، ويختلط بنهر حماة • ومنها نهر في شمالي أفامية على نحو ميلين ويعرف بالنهر الكبير ، يسير مدأ قريباً ويصب أيضاً في بحيرة أفامية ، ويخرجان منها مع نهر الأرنط • ومنها النهر الاسـود ، يجرى من الشمال ، ويمر تحت دربساك[١٩]• ونهر يغرا [٢٠] ، ومنبعه قريب يغرا ،

---

(١٤) جوسية : قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق انظر معجم البلدان (٣ / ١٧١) .

(١٥) قدس : بلد قرب حمص ، تضاف بحيرة قدس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٨٠ ــ ٨١) و (٧ / ٣٥) .

(١٦) الرستن : بليدة قديمة بين حمص وحماة ، انظر معجم البلدان (٤ / ٢٤٩) .

(١٧) شيزر : قلعة قرب المعرة ، انظر معجم البلدان (٥ / ٣٢٤) .

(١٨) السويدية : شمالي اللاذقية ، وهي ميناء انطاكية ، انظر تقويم البلـدان (٢٩) .

(١٩) دربساك : بلدة من جند قنسرين ، ذات قلعة مرتفعة ، انظر تقويم البلدان (٢٦٠ ــ ٢٦١) .

(٢٠) يغرا : قرية على نهر باسمها بالقرب من بحيرة افامية ، انظر تقويم البلدان (٤٢) .

ويصب في النهر الاسود المذكور ، ويصبان في بحيرة أنطاكية ، أيضا . ونهر عفرين [٢١] ، يأتي من بلاد الروم ، ويمر الراوندان [٢٢] الى الجومة[٢٣] ، ويمر في الجومة ويتجاوزها الى العمق [٢٤] ، ويختلط بالنهر الاسود ، وتصير هذه الانهر الثلاثة ، أعني النهر الاسود ونهر يغرا ونهر عفرين نهراً واحداً ، ويصب في بحيرة أنطاكية ، ويخرج منها ويصب في نهر عاصي حمـاة فوق أنطاكية بالغرب منها [٢٥] .

أما نهر أنقرة فيسقي مروجها وضياعها ، ويصب في بحر الروم ، وجريانه من الجنوب الى وسط الشمال [٢٦] .

أما نهر هرقلة ، فينزل من جبال العلايا[٢٧] الى جهة سنوب[٢٨] ، وهرقلة على شرقي هذا النهر قرب البحر [٢٩] .

والبردان نهر بثغر طرسوس ، مجيئه من بلاد الروم ، ويصب في بحـر الروم على ستة أميال من طرسوس : « ولا أعرف بالشام موضعاً أو نهراً يقال

(٢١) عفرين : اسم بلد على نهر باسمها ، انظر معجم البلـدان (٦ / ١٨٩) ، ويبدو انها قريبة من قنسرين وحلب .
(٢٢) الراوندان : قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة ، من نواحي حلب ، انظر معجم البلدان (٤ / ٢١٤) .
(٢٣) الجومة : من نواحي حلب ، انظر معجم البلدان (٣ / ١٧٦) .
(٢٤) العمق : كورة بنواحي حلب ، انظر معجم البلدان (٦ / ٢٢٤) .
(٢٥) المعلومات الخاصة بنهر حماة من : تقويم البلدان (٤٩ ــ ٥٠) .
(٢٦) تقويم البلدان (٥٠ ــ ٥١) .
(٢٧) علايا : بلدة محدثة صغيرة في الجنوب من انطاليا على بحر الروم ، انظر تقويم البلدان (٣٨٠ ــ ٣٨١) .
(٢٨) سنوب : بلدة بالقرب من القسطنطينية .
(٢٩) تقويم البلدان (٥١) .

له : البردان غيره » • والبردان أيضاً نهر يسقى بســاتين مرعش وضياعها ، مخرجه من أصل جبل مرعش ، ويسمى هذا الجبل : الأقرع(٣٠) ، ويصب في بحر الروم ، وهو نهر كوردس القديم •

وعلى مرحلة طرسوس ، نهر كان يؤلف حداً مائياً في الازمنة الاولى ، وهو نهر (لموس Lamos) ، سماه العرب نهر : اللامس ، وعليه يكون الفداء اذا فودي بين المسلمين والروم (٣١) •

ونهر الفرات الذي ينبع من شمالي مدينة أرزن الروم وشرقيها ، وأرزن في آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق ، ثم يأخذ النهــر الى قرب ملطية ، ثم يأخذ الى سميساط ، ثم يأخذ مشرقاً ويتجاوز قلعة الروم ، وهي حصن منيع على جنوبي الفرات وغربيها ، ويمر الفرات مع جانب الحصن من شماليه وشرقيه ، ثم يدخل الفرات بلاد الشام ، ومنه الى العراق (٣٢) ، وقد ذكرنا الجزء الذي يمر ببلاد الروم فقط من هذا النهر •

أما نهر دجلة ، فينبع من جبال شهرزور فوق آمد على حدود ارمينية ، ويمر بجبال السلسلة ، ثم بمدينة آمد ومدينة ميافارقين في ديــار بكر اقليم الجزيرة قبل أن يصل الى مدينة الموصل •

وقد ذكرنا الجزء الذي يمر ببلاد الروم والجزيرة فقط من هذا النهر ، لان هذا ما نحتاج اليه في هذا المكان (٣٣) •

وتكثر العيون في بلاد الروم ، لتساقط الثلوج شتاء ، وذوبانها في الربيع

(٣٠) معجم البلدان (٢ / ١١٥) .
(٣١) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٥) .
(٣٢) انظر التفاصيل في : تقويم البلدان (٥١ ــ ٥٣) .
(٣٣) انظر التفاصيل في : تقويم البلدان (٥٣ ــ ٥٧) .

والصيف ، فترفد العيون والانهار بهذه المياه .

وعلى كل حال ، فان المياه متوفرة في جميع أصقاع بلاد الروم .

المـوارد الاقتصـادية

١ ــ مجمل الزراعة والصناعة :

بلاد الروم عموما غنية في انتاجها الزراعي ومواردها الطبيعية ، يرويها بضعة أنهر كبيرة وصغيرة ، وعيون كثيرة جداً ، والامطار ومياه الثلوج .

وقد ذكر قسم من البلدانيين المسلمين بعض ما يتيسر في تلك البلاد من موارد اقتصادية ينعم بها سكانها المحليون ، ويصـدرون ما يفيض منهم على حاجاتهم المعيشية .

فالعلايا كثيرة المياه والبساتين[٣٤] ، وأنطالية بداخل البلد وخارجه المياه جارية ، ولها بساتين كثيرة من الحمضيات وأنواع الفـواكه [٣٥] . وأنطاكية موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسـعة الخير ، تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون ، قراها متصـلة ورياضها مزدهرة ومياهها متفجرة[٣٦] . ومدينة آق شهر (أقشار) من انزه المدن ، وبها بساتين كثيرة وفواكه مفضلة [٣٧] وأماسية لها بساتين ونهر كبير ونواعير تسقى بها ، وهي مشهورة بالحسن وكثرة المياه والكروم والبساتين[٣٨] . وأذنة في

(٣٤) تقويم البلدان (٣٨١) .
(٣٥) تقويم البلدان (٣٨١) .
(٣٦) معجم البلدان (١ / ٣٥٤) .
(٣٧) تقويم البلدان (٣٨٣) .
(٣٨) تقويم البلدان (٣٨٤) .

مرج وقرى متدانية جداً وعمارات كثيرة ، وهي على نهر سيحان[٣٩] . ومدينة توقات لها بساتين وأشجار وفواكه جيدة[٤٠] . ومنطقة (سيواس Sebastia مشهورة بثياب الصوف التي تحمل منها ، وهي ذات هواء بارد يكثر فيها القطن والقمح [٤١] . وعمورية لها دخل وافر ، ولها رحىً تغل مالاً [٤٢] ، وبها بساتين قليلة ، ولها أعين ونهر [٤٣] . اما قيسارية فبلدة كبيرة ، ذات أشجار وبساتين وفواكه وعيون تدخل اليها [٤٤] . ومدينة قونية لها جبل في جنوبيها ، ينزل منها نهر ويدخل الى المدينة من غربيها ، ولها بساتين من جهة الجبل ، ونهرها يسقى بساتينها ثم تصير عنه بحيرة ومروج ، والفواكه بهـا كثيرة ، وهنـاك المشمش المعروف بقمر الدين [٤٥] الذي يصدر الى العراق والجزيرة وبـلاد الشام ، وينمو في مزارعها القطن والقمح [٤٦] . ومدينة المصيصة على شاطىء نهر جيحان ، وبها بساتين كثيرة يسقيها هذا النهر [٤٧] . ومدينـة ملطية ذات أشجار وفواكه وأنهار ، ويحتف بها جبال كثيرة الجوز وسائر الثمار مباحة لا مالك بها ، ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة[٤٨] . وميـاه بلاد الروم كثـيرة غزيرة [٤٩] ، والارض التي بين القسطنطينية وأنطاكية مأهولة مسكونة لاتنقطع

(٣٩) معجم البلدان (١ / ١٦٦) .
(٤٠) تقويم البلدان (٣٨٥) .
(٤١) بلدان الخلافة الشرقية (١٧٩ ــ ١٨٠) نقلا عن المستوفي .
(٤٢) معجم البلدان (٦ / ٢٢٧) .
(٤٣) تقويم البلدان (٣٨١) .
(٤٤) تقويم البلدان (٣٨٣) .
(٤٥) تقويم البلدان (٣٨٣) .
(٤٦) بلدان الخلافة الشرقية (١٨١) .
(٤٧) معجم البلدان (٨ / ٨٠) .
(٤٨) تقويم البلدان (٣٨٥) .
(٤٩) صورة الارض (١٨١) .

سابلتها من نواحي أنطاكية ورستاقها ، وهو رستاق كثير الخير والميـر الى خليج القسطنطينية [٥٠] ، وما يقال عن اقليم أنطاكية يقال عن سائر أقاليم بلاد الروم .

وما ذكر عن خيرات المدن ، يشمل أقاليم تلك المدن أيضاً وقراها ، فهذه البلاد زراعية بالدرجة الاولى ، وأرضها مزروعة أو مروج ومراعٍ للأغنـام والماشية والأبقار والخيول والبغال والحمير .

وحاصلات البلاد الزراعية تتلخص في : القمح ، والشعير ، والعدس ، والحمص ، والباقلاء ، والبصل والثـوم ، والقطن ، وأنـواع الفـواكه ، والحمضيات ، وأنواع المخضرات ، والزيتون ، والجوز ، واللوز ، والفستق ، والبندق ، والبلوط ، والكروم .

ويصنع فيها النبيذ ، وتربى بها دودة القز [٥١] ، والاغنام ، والمواشي ، والأبقار ، وتصدر الى بلاد الشام والجزيرة والعراق المواشي والاغنام والابقار والبغال .

أما الصناعة في البلاد ، فموجزها هي : أن المصيصة كانت تعمل بها الفراء التي تحمل الى الآفاق ، وربما بلغ ثمن الفرو ثلاثين ديناراً [٥٢] ، وكانت سيواس مشهورة بثياب الصوف التي تحمل منهـا [٥٣] ، وكانت تجلب السـلع الى طرابزون من القسطنطينية ، وأخص هذه السلع : ثياب الكتان اليوناني ، وثياب الصـوف والـديباج ، والأكسـية الرومية ، وكلهـا يجلب من الخليج أي

(٥٠) صورة الارض (١٨٣) .
(٥١) الجغرافية العمومية (١٨١) .
(٥٢) معجم البلدان (٨ / ٨٠) .
(٥٣) بلدان الخلافة الشرقية (١٦٨) نقلا عن : صورة الارض لابن حوقل .

البسفور ، وكان في ملقونية يقطع الرحى لتلك البلاد من جبل تلك المدينة[٥٤].

٢ ـ الزراعة :

كانت الارض أسلم أنواع الاستثمار المالي ، لأن الأرض شيء ثابت ، فوضع صاحب رأس المال ماله في الارض، وكذلك فعلت الدولة، لأن الارض كانت أضمن موارد دخلها ، وكان الكيان المالي تبعاً لذلك ، يستند في الدولة البيزنطية على دعامة رئيسة هي ضريبة الارض التي كانت تجبى في كل مكان بشدة وقسوة وبدون لين أو رحمة .

وكانت ضريبة الارض تجمع على شكل جزء من محصـول الارض ، لتموين الجيش والموظفين المدنيين ، وكان على الولايات أن تقدم من ضرائبها الجرايات التي لم يكن الامبراطور على استعداد لشرائها ، فكان يصدر مرسوم يسمى : (التفويض الالهي) تقدر فيه نفقات الامبراطورية ، ومقدار ما ينبغي على الفرد دفعه في العام التالي .

وقد قسمت الارض الى درجات ، روعي في تقسيمها قدرة تربتها على على الانتاج : فهناك الصحراء التي لا يبللها القطر فتعجز عن الانبات ، وهناك الأرض التي يمكن استصلاحها ، وهناك أرض تغذيها الأنهر مباشـرة أو بالنواعير ، وهناك أرض تغمرها المياه فيتعذر النمو على البـذور . وتتوقف درجات الانتاج الزراعي على هذا التصنيف الواضح للارض ، وكانت الدولة تفرض حقوقها على المزارعين بعد أن تصنف وتسجل هذه الاختلافات في نوعية الارض ، وتضع خطاً بيانياً يحدد طاقة كل منهم . فمثلا كانت الوحدة المكونة من خمسة أفدنة من الكروم ، تساوي عشرين فداناً من الارض المحروثـة ،

(٥٤) معجم البلدان (٨ / ١٥٢) .

وتساوي خمساً وعشرين ومائتي شجرة من الزيتون اذا كانت الارض تلالا • وكانت هناك ثلاثة أنواع من الارض المزروعة ، جعلت مساحة الواحدة منها عشرين فداناً وأربعين فداناً وستين فدانا ، بالنسبة لانتاجها الزراعي كل سنة •

وهكذا قسمت الأرض المنتجة الى وحدات ضرائبية ، تقدر على الأغلب بناء على شهادة أصحاب الأرض في مدد منظمة بين حين وآخر ، وكانت هذه الضريبة تجبى على الأرض المفلوحة •

ومن الواضح أن نظاما كهذا النظام ، لم يكن ليستطاع تطبيقه بنجاح الا اذا احتفظ بالتعادل بين وحدات الأرض ووحدات العمل التي كانت مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، وكانت المحافظة على هذا التعادل مصدر قلق للمالك والحاكم البيزنطي ، وكان من نتائج هذا القلق الدائم تصميم الحكومة على ربط الفلاح الحر (معمر الأرض Colonus) بالأرض التي يحرثها •

وعلى ذلك ، حين يقرر (التفويض الالهي) حاجة الامبراطورية من المال اللازم لادارتها في السنة المقبلة ، توزع هذه الكمية الضخمة من المال المطلوب على ألوية الامبراطورية ، ويقوم حاكم اللواء بتقسيمها بين الولايات التي ينقسم اليها لواؤه ، ثم يعهد لحاكم الولاية بتوزيع هذا الحمل بين بلديات الولاية ، ويعهد لأعضاء البلديات تقرير ماتدفعه كل من القرى الواقعة في نطاق بلدهم ، وأخيرا يقوم موظفو القرية بتقدير المبلغ الذي يخص كل وحدة ضريبية في نواحيهم •

وكان هناك ميل قوي خلال القرن الرابع للميلاد ، لاستبدال ما يعادل الضريبة العينية من المال بالضريبة العينية ، وانتهى الأمر بتعميم قبض الضريبة مالاً لاعيناً ، وجعل ذلك اجبارياً ، وأصبح (التفويض الالهي) يقرر الضريبة المالية المعادلة لها في نفس الوقت •

بينهم وبينه أشكالاً عديدة كان أشيعها أن يتنازل المزارع لذلك المالك الكبير عن أرضه ، ويصبح مزارعاً عنده .

وقد تميز القرنان الخامس والسادس للميلاد ، بنمو قوة الملاك الكبار ، وأصبح تاريخ الامبراطورية من وجهة الزراعة نزاعاً بين الدولة وهؤلاء الملاك الكبار . وشهد القرن السادس الميلادي جماعات من المواطنين يكونون عصابات مسلحة ، وكانت هذه العصابات تهديداً مباشراً للأمن في الولايات ، وكانت خصومات النبلاء الكبار صوراً للرعب المقيم ، وكانوا بعصاباتهم المنظمة يتحدون السلطات المدنية ، ولكن غزوات الصقالبة من الشمال ، وغزوات الفرس والعرب من الشرق والغرب ، استطاعت أن تكسر شوكتهم .

وحين استتب النظام ثانية في عهد بيت هرقل ، كانت هناك فرصة للمالك الصغير ، الا أن الملاك الكبار ، بذلوا محاولات لتمكين سلطانهم على المزارعين الصغار .

وبالامكان التأمل في حياة المزارع القروي البيزنطي ، ولكن علينا أن نميز قبل كل شيء بين القرية الحرة والقرية المملوكة لواحد من كبار الملاك . كان الفلاحون في كلتا القريتين مرتبطين بالأرض التي يزرعونها ، الا أن الأرض في القرية المملوكة للسيد ، يكون مالكها هو المسئول أمام الدولة عن جميع الضرائب بالنيابة عن عبيده ممن ليس لهم الحق في امتلاك الأرض ، فهي دائماً تحت تصرف سيدهم . أما الأرض في القرية الحرة التي يسكنها المعمرون ، فتخص جماعة القرية أو المزارعين أنفسهم ، وكان هؤلاء أحراراً في امتلاك الأرض أو التصرف بها . واذا دخلنا قرية حرة ، لرأينا أرضها تشتمل على الكروم والبساتين التي كانت تزرع فيها الخضر ، وكذلك الأرض المفلوحة والمراعي . وكانت الكروم والبساتين تحاط بخنادق وسياجات شائكة تشدها

الأوتاد ، وكانت الماشية تتعرض للأذى اذا اقتحمتها • أما الأرض غير المفلوحة فلم تكن مسورة ، وكانت على الاغلب ملكاً للأفراد يستطيع المزارع أن يتصرف بها كما يشاء في حدود ملكية جماعته • وكانت المراعي تكون الأرض غير الصالحة للزراعة ، كالأحراش التي لم تقطع أشجارها ، والأرض الوعرة ، وكانت هذه المراعي تقع في أطراف القرية بعيدة عن مركز الحياة فيها ، وكانت على الأغلب ملكاً للجماعة ، ثم يمتلكها المزارعون قطعة فقطعة ، ثم تنظف وتعد للزراعة ، ثم تقسم على المزارعين ، وبهذا تدخل قطع جديدة في ملكية الأفراد• وقد تكون الأحراش ملكاً للأفراد ، فأذا أراد أحد المزارعين أن يزرع قطعة منها، طلب الى صاحبها أن يأذن له بزراعتها ، ويستطيع بذلك أن يستثمرها ويحتفظ لنفسه بغلتها ثلاث سنين تعود بعدها الى صاحبها ، ولكنه اذا زرعها بدون اذن، فقد الحقّ في المطالبة بمحصولها •

وكان رعاة الماشية يسوقرنها في الصباح الى هذه الأحراش العامة لترعى، تصحبهم كلابهم القوية الشرهة ، حتى اذا اصطبغ الأفق بحمرة الشفق عادوا بها الى حظائرها • وكان كل خروف أو ثور يحمل جرساً حول عنقه لئلا يضل ، واذا تجرأ لص وقطع الجرس وتسبب عن ذلك ضلال الحيوان وضياعه ، ألزم بدفع تعويض مقابل تلك الخسارة •

وكانت دعامة ثروة جماعة القرية هو ما تملك من قطعان الماشية بأنواعها ، وكان الراعي يأخذ أجره على عمله ، فيعهد اليه المالك الصغير بثوره الخاص وخروفه فيرعاهما مع القطيع : فاذا شرد حيوان وأحدث ضرراً للأرض المزروعة أو الكروم ، لم يضع على الراعي أجره ، ولكن ألزم بتعويض الخسارة • وكانت الحيوانات المفترسة تحوم حول القرية ، كالذئاب التي كانت تترصد الخراف والحمير لتفترسها ، واذا هاجمت هذه الوحوش القطيع ليلاً ، فالويل كل

الويل للص الذي يتضح أنه سرق كلب الحراسة ، اذ كان يلزم بدفع قيمة الخسارة ، فيدفع تعويضات عن القطيع كله والكلب . وكان يسمح للماشية بعد حصاد الأرض أن ترعى بقايا الزرع ، الا أنه لم يكن يسمح لرجل أن يطلق ماشيته في أرضه الا اذا فرغ كل جيرانه من حصادهم .

أما مكانة المزارع ، فقد يكون صاحب حصة من الأرض ، ويستطيع في هذه الحالة أن يتصرف بها تصرفاً مطلقاً في حدود دائرة جماعته . وقد يكون مستأجراً للأرض ، وهو في هذه الحالة أحد اثنين : اما مزارع لمزرعة في حالة جيدة ، أو مستأجر لأرض لم تكن تزرع على شريطة أن يعيدها لصاحبها بعد أجل معين ، ففي الحالة الأولى يقوم المالك بتقديم المال الرئيس لاقامة مايلزم من المنشآت في المزرعة ، ولا تؤجر المزرعة في هذه الحالة الا لمدة قصيرة قد تكون سنة ، فيدفع المزارع للسيد أجراً باهظاً يبلغ نصف المحصول السنوي، وهو ما يقابل في حسابنا أكبر ايجار يمكن دفعه ، وعلى المؤجر في الحالة الثانية أن يقدم رأس المال ، أي أنه في واقع الأمر يقوم بانشاء مزرعة جديدة ، ويكون استئجاره للأرض على هذا اما للأبد أو لعدد كبير من السنين ، ويدفع عادة أجراً يساوي عشر المحصول . وربما كان يلزم بمقتضى شروط أخرى ، أن يؤدي لصاحب الأرض بعض الخدمات ، أو أن يؤدي اليه كميات من المحصول.

وكانت روابط القرابة في الجماعات القروية متينة جداً بطبيعتها ، واذا وجدنا فلاحين مشتركين في ملكية أرض ، فلابد أن نجد أنهما متصاهران في نفس الوقت غالباً . فاذا أراد أحدهما أن يبيع نصيبه كله كان لقريبه حق الشفعة اذا دفع ثمناً مساوياً لما يدفعه أي غريب عنهما ، وحتى اذا لم يكن المتجاورون أقرباء وكانوا شركاء ، تمتعوا بحق مشابه .

لكن حق المزارع الحر في التصرف لم يكن يخلو من خطر ، فقد كان

المالك الكبير دائم السعي لتوسيع ملكه ، فكان من السهل عليه أن يضطر المالك الصغير الحر الى التخلي عن أرضه لجاره القوي • وحاول التشريع الاصلاحي في القرن العاشر الميلادي أن يحرم على المالك الكبير حيازة أرض علاوة على أملاكه الأخرى في حدود أرض القرية ، سواء كان ذلك عن طريق الهبة ، أم لاعتبار آخر مهم ، وسواء أكان ذلك المالك سيداً مدنياً أم هيئة كنسية • ولكن هذا المنع لم يكن ليعيش طويلاً في هيئته هذه ، ولهذا عدلت القوانين ، وأخذ بالقاعدة التي تقول بأن انتقال الملكية لايصح الا بين ناس من نفس الطبقة الاجتماعية ، الفقير ينقل للفقير ، والغني للغني ، أي كل لمن هو من طبقته في كل حالة • وتداعت القاعدة القانونية لنقل الملكية نقلا مطلقا من كل قيد أمام ماكانت السياسة تفرضه على رجال الدولة من حماية الضعيف ، وظل مركز المالك الكبير القوي بالنسبة للمزارع الصغير الضعيف ، في الامبراطورية البيزنطية الشرقية وسلامته يعتبران القاعدة التي يجب أن تنحني أمامها سائر النظريات القانونية ، وبقي المجتمع مقسماً الى طبقات بعضها فوق بعض ، وكان ذلك دعامة بناء المجتمع في القرن الرابع الميلادي ، كما كان دعامته في القرن العاشر الميلادي أيضاً (٥٥) •

٣ ــ التجارة والصناعة :

كانت التجارة مع الشرق تحتل المكان الأول من الأهمية بالنسبة لايطاليا في عصور الامبراطورية الاولى ، فقد كانت تستورد من الشرق أسباب الترف التي كانت قد أصبحت من ضروريات الغرب • وكانت التجارة مع الشرق

(٥٥) مقتبس من الفصل السادس ، بعنوان : ملكية الارض والضرائب ، كتاب : الامبراطورية البيزنطية ــ نورمان بينز ــ تعريف الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زائد ــ ط ٢ ــ القاهرة ــ ١٩٥٧ • ص (١٢٩ ــ ١٤٦) •

لاتزال تستنزف معظم نشاط تجار الروم ، بعد أن نقلت العاصمة من رومة الى القسطنطينية . وكانت الدولة بدورها تبدي اهتماما بالتجارة ، اذ أن كنوز الهند والصين التي كانت الدولة تغدقها على أمراء القبائل المتبربرة في الغرب ، كانت كافية للابقاء على سيادتها الامبراطورية حتى في النواحي التي لم تكن جيوشها قادرة على السيطرة عليها .

وكانت هناك ثلاثة طرق يمكن للمنتجات الشرقية أن تصل عن سبيلها من الشرق الأقصى الى التاجر الرومي : كان أقصرها يعبر واحات بلاد الصغد (سمرقند وبخارى) مخترقاً فارس ، ومن ثم الى حدود الامبراطورية البيزنطية . والثاني يخترق المحيط الهندي الى البحر الأحمر ، والثالث وهو طريق أكثر صعوبة ، يمتد من وسط آسيا الى بحر الخزر ، ومن ثم الى البحر الأسود بعيداً عن دولة فارس . وقد ازداد الاقبال على الحرير بصورة مضطردة مع زيادة أسباب الترف ، وأصبح ارتداء الثياب الحريرية المصنوعة من الحرير الخالص في هذا العصر مألوفاً في الحياة البيتية ، وأخذت الكنيسة أيضاً ترحب بهدايا من هذه المادة الثمينة للألبسة الكهنوتية والستر والأغطية ، ولتزيين المذابح ــ بعد أن كانت أول الأمر ترفض استخدام الحرير للأغراض الدينية ، بينما احتكرت الدولة صنع أشكال معينة من ثياب الحرير كانت تلبس في مراسم البلاط . وكانت الدولة على كل حال تعتمد على القوافل التي تقطع فارس في امدادها بهذه المادة الجديدة . وقد لحق بتجارة الروم ضرر كبير من جراء عرقلة المواصلات ورفع ثمن المادة الحريرية الخام ، وكنتيجة لتحميل البضائع المستوردة ضرائب كمركية باهظة قبل أن تجتاز الحدود الى بلاد الروم ، وبسبب الحروب البيزنطية الفارسية .

ومنذ القرن الخامس الميلادي ، أخذت الدولة تتدخل في التجارة ،

فقصرت السماح بشراء الحرير على وكلاء الدولة في الحدود ، لكي لايكـون لها منافس ، ومن ثم يباع الى الأفراد بالسعر الجاري بعدئذ •

وجلبت شرانق دود القز الى بلاد الروم في أواسـط القرن السـادس الميلادي ، وبدأت أشجار التوت تزرع ، وأخذت الامبراطورية البيزنطية تنتج ما يلزمها من الحرير ، وظلت الدولة تحافظ على احتكارها لصناعة الحريـر باهتمام ، وتستخدم ألوف العمال في ذلك •

وفي خلال النصف الأخير من القرن السادس الميلادي فتح طريق التجارة الشمالي بعد انقطاعه ، وكانت موانىء القرم تتاجر مع الهون وجنوب روسيا ، فتجلب الجواهر وتحف الصناعة الرومية الفاخرة وتستبدل بها الجلود والعبيد من الشمال ، بينما كان أهل قبائل القوقاز يبيعون الجلد والفرو للحصول على القمح والملح والخمر •

وكان طريق التجارة الجنوبي أهم من ذلك بكثير ، حيث تمر التجـارة الهندية والصينية والحبشية بالبحر الأحمر ، وكانت سيلان أهم مركز تجاري في حينه ، يلتقي على أرضها تجار الشرقين الأقصى والأدنى وتجـار الهنـد والحبشة والصين • كما كان للروم تجارة مع الروس ، واستطاع الروس دخول القسطنطينية على شريطة أن يكون دخولهم من بوابة واحدة غير مسلحين ، وألا يدخل أكثر من خمسين منهم في المرة الواحدة ، وهناك كانوا يستطيعون قضاء الصيف على ألا يطول مكثهم عن ذلك • وكانت الحكومة البيزنطيـة تهيىء المسكن والطعام والحمامات للتجار الروس طول مدة زيارتهم دون مقابل، وكانت تختص رسل أمير (كييف) الروسية التجاريين بمنح خاصة ، فلم تكن تحصل من التجار الروس على ضرائب كمركية • وكانت التجارة جميعها تقريباً تجري على أساس المقايضة ، فكان الفراء الروسي والشمع والعبيد تقـايض

بالخمور اليونانية والفواكه والأقمشة الحريرية • وكانت الدولة البيزنطية تجهز التجار عند رجوعهم بالمؤن اللازمة لهم أثناء رحلتهم ، كما كانت تمنحهم أدوات لسفنهم كالمراسي والحبال الضخمة والصغيرة والأشرعة ، مما كانوا بحاجة اليها لاصلاح سفنهم وادامتها •

وفي القرن العاشر الميلادي ، أصدرت الدولة البيزنطية مجموعة القوانين لنقابات القسطنطينية التجارية • وأبرز مواد تلك القوانين ، تلك التي تنص على منح الحماية للمستهلك والمنتج على السواء ، فكانت الدولة تحرم على التجار جمع البضائع من السوق بقصد رفع الثمن والانتفاع من ذلك ، وكذلك كان من المحرم شراء البضائع جملة والكسب من وراء بيعها تفاريق ، فكان يجب ـ في حدود الامكان ـ أن يشرى كل شيء ويباع دون تدخل الوسطاء• ووضعت مادة تحفظ للعامل أجره الذي يستحقه ، وتكبح جشع الرأسماليين ، وتمنع احتكار أقلية غنية لصناعة ما • وكان المشتغلون بكل حرفة من الحرف يجتمعون في نقابة خاصة بهم ، وكان الجمع بين عضوية نقابتين في وقت واحد محرماً • وفي الحالات التي تمس مصلحة الدولة ، كحالة التموين مثلاً ، نجد أن القواعد التي كان أعضاء النقابة الخاصة بذلك الموضوع خاضعين لها ، مفصلة تفصيلاً خاصاً ، فكانت الحكومة تقرر الثمن التي تشترى به المواد الخام وسعر بيع المأكولات ، ويظهر أنه كان في استطاعة الدولة أن تطلب بعض الخدمات من النقابات دون مقابل ، وربما كان هذا لتقليد يوناني قديم ، كانت الدولة تفرض بموجبه على مواطنيها الأغنياء أن يتطوعوا للقيام بخدمات لها • وربما كان تعيين رؤساء النقابات يتوقف في كل حالة على موافقة محافظ المدينة ، بينما كانت الدولة تشترط لكي تسهل عليها مراقبة كل المبيعات أن تكون العمليات علنية ، وكان من المحتم أن تتم هذه العمليات في أماكن معينة محددة لكل حرفة • وكان للنقابة وحدها أن تشتري المواد ثم توزعها على

أعضائها ، وكانت تلك الصفقات التي يقوم بها موظفو النقابات لاتتم الا في مواضع معينة • وكان انتهاك حرمة هذه النظم يعرض مرتكبها للعقاب بالفصل من النقابة ومصادرة أملاكه ، أو بتغريمه مالاً ، أو بجلده وقص شعر رأسه ولحيته ، واذا كانت الحالة أكثر خطورة ينفى أو تقطع يده • وكان على التجار الأجانب حال وصولهم العاصمة ، أن يخطروا السلطات الحكومية ، ولم يكن باستطاعتهم أن يمكثوا في العاصمة أكثر من ثلاثة أشهر الا بموجب اتفاق خاص • واذا انتهت هذه المدة دون أن يبيعوا بضائعهم ، قامت الدولة بوضع الترتيبات لبيعها • وكان كل ما يشترونه من البلدة نفسها خاضعاً لرقابة دقيقة، ولم يكن يسمح لهم أن يحملوا معهم شيئاً من الأمتعة التي كان تصديرها محرماً كالمواد الحريرية المتميزة • وكانت الحكومة تكشف عن كل البضائع كشفاً دقيقاً ، فاذا أبيح بعدئذ تصدير بضاعة ما ، طبعت بخاتم الدولة •

غير أن التجارة البيزنطية اضمحلت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، لأن الدولة اضطرت الى أن تمنح مدينة البندقية امتيازات شديدة الخطر ، في مقابل الحصول على معاونتها ، وذلك بعد أن أخفقت في الاحتفاظ بأسطولها • ولاشك في أن هناك أسباباً عدة لاضمحلال التجارة البيزنطية ، وحسبنا أن نذكر سبباً يظهر أنه قد لعب دوراً مهماً ، وهو : لم يكن أغنياء الروم على استعداد لأن يجازفوا برؤوس أموالهم في تجارة تذهب الى ما وراء البحار ، بل كانوا يفضلون استثمار أموالهم في الأرض ، لأن الاخطار البحرية كانت في الواقع عظيمة : أخطار شبوب النار في السفن ، كما كان هناك ناس كثيرون يتربصون بالسفن على الشواطىء لأغراقها ، وكانت هناك أخطار لصوص البر وقرصان البحر • وكانت السفن تتعرض لما يسمى بالقصاص ، وذلك أن دولة من الدول تمنح لرعاياها ، الذين أنزل بهم حيف من دولة أخرى، الحق في أن ينتقموا لأنفسهم بمهاجمة كل سفينة تابعة للدولة التي اعتدى

أهلها على رعاياها . وهناك خطر الوقوع في يد القرصان المسيحيين المتدينين ، الذين يكسبون عن هذا الطريق المال الذي يعينهم على الخروج للحج الى بيت المقدس .

ومن هنا ، كانت السفن تسير جماعات في قوافل لتتبادل المساعدة ، وكانت تحمل رجالاً مسلحين للدفاع عنها .

لهذا لم يكن أغنياء الروم مستعدين للمجازفة بأموالهم في مخاطر التجارة البحرية ، فكانوا يستغلون أموالهم في شراء الأرض وتثميرها ، فاضمحلت تجارة الروم ، وتفوقت عليها تجارة البندقية فواقاً بعيداً (٥٦) .

أما خلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، فكان الصانع منهمكاً في أشغاله ميسورا ، فدولة الروم لم تعرف عهداً في تاريخها زهت فيه الصناعة والتجارة زهوهما في هذين القرنين . ولم تكن القسطنطينية في أي وقت من أوقاتها أكثر نتاجاً وأوفر ربحاً ، وأصبحت بوفرة مالها وحذق صناعها أم المال والذهب والفن والعجائب للعالم أجمع ، وقصدها أمهر الصناع وأطمع التجار من سواحل البلطيق حتى الأسود والأدرياتيكي ، ومن ارمينية والقوقاز حتى اسبانيا والبرتغال ، وتمنى بذخها وثروتها أمراء الاقطاع شرقاً وغرباً .

فعلاوة على البقالين واللحامين والخبازين والبنائين والنحاتين والرخامين والنجارين والحدادين والخياطين والرسامين ، كان هناك طبقة من التجار والصناع يعنون بنسج الحرير وصبغه وتزيينه بالرسوم وبالفضة والذهب ، وهؤلاء أدهشوا العالم بدقة صنعهم ومهارتهم ، فجمعوا أموالا طائلة ، وجعلوا من القسطنطينية قبلة أنظار أهل البذخ والترف في الشرق والغرب معاً . كما

(٥٦) مقتبس من الفصل الثالث عشر : التجارة من كتاب الامبراطورية البيزنطية .

أن صناعة الروائح العطرية لم تقل شأناً عن صناعة الحرير .

وشجعت الحكومة هذه الصناعات وأخفت أسرارها ، ونظمت أمورها ، ثم حمت هذه الصناعات من مزاحمة الاجانب، فحددت الاستيراد أو منعته(٥٧).

لقد كانت تجارة الروم وصناعتهم في تقدم تدريجي حتى نهايـة القرن العـاشر الميلادي ، حيث بلغت أوج تقدمها ، ثم اضمحلت بعد ذلك خـلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلادي ، فتأخرت وتقدم عليها غيرها من الأمم ، كما ذكرنا ذلك .

تاريخ بلاد الروم قبل الفتح الاسلامي

وفي ايامـه الأولى

١ ـ مولد الامبراطورية البيزنطية :

الروم عند العرب قبل الاسلام وبعده هم الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون، والبيزنطيون عند أنفسهم روم ، أي رومان . وعاصمتهم : (رومة الجديدة) أي القسطنطينية ، ولايـزال الروم الأرثوذكس يدعون القسـطنطينية مركز البطريرك المسكوني حتى يومنا هذا : (رومة الجديدة) .

واللفظ : روم في نقوش الصفا اسم بلاد واسم شعب ، وورد اسم الروم في القرآن الكريم في : (الم . غُلِبَتِ الرُّومُ . في أدنَى الأرْضِ وهُمْ من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)(٥٨) . في آية واحدة ، مرة واحدة فقط ،

(٥٧) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ـ الدكتور أسد رستم ـ ص (٢ / ٩٦ ـ ٩٧) ـ بيروت ـ ١٩٥٦ .
(٥٨) الآيات الكريمة من سورة الروم (٣٠ : ١ ـ ٣) .

وحملت السورة التي جاءت فيها تلك الآية الكريمة اسم : سورة الروم ، وهي من السور المكية (٥٩) .

وكانت رومة ، عاصمة الروم الاولى ، ولكنها تقهقرت لأسباب كثيرة نذكر أهمها بايجاز شديد .

فقد كان من جراء التوسع العسكري الروماني ، أن تعاظم كسب قادة الجيش وضباطه وحكام الولايات وكبار الموظفين ، فعادوا الى أوطانهم متمتعين بجميع ضروب التنعم والترف ، مشبعين بغطرسة من ذاق لذة السلطة المطلقة ، بعيداً عن وازع الشريعة الرومانية وقيود النظم الجمهورية .

وتهافت الأغنياء والكبراء على اقتناء المزارع الواسعة المترامية الأطراف، وحشروا فيها ما ملكوا من أرقاء . ولم يقو المزارع الصغير على مزاحمة جاره المزارع الكبير ، فضم أرضه الصغيرة الى أرض جاره الكبيرة ، وربط نفسه بتلك الارض الى الأبد . ومع أن هذا النظام الاقطاعي لم يجعل من المزارع الصغير الذي لا أرض له رقيقاً لسيده ، فانه فقد حريته في أن يذهب حيث يشاء . وكانت حياة الرقيق في هذه المزارع الكبيرة شاقة تعسة ، وكان يكوى بمياسم ليبقى الوسم علامة يعرف بها عند الفرار ، فنفر الرقيق من صحبة سيده، وانقبضت نفسه عن العمل له باخلاص وأمانة . وتضاءلت على الأيام حقول القمح وبساتين الزيتون وكروم العنب ، وبار قسم من المزارع وترك لينبت فيه العشب والدغل . واعتمدت رومة على قمح مصر وحبوبها لتغذية أبنائها وأبناء المدن الايطالية الاخرى ، وقلت الأيدي العاملة لهجرة الفلاحين الى المدن ، فبارت الارض لهذا السبب أيضا ، وضعف الانتاج الزراعي .

---

(٥٩) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (٣٢٩) ـ محمد فؤاد عبدالباقي ـ القاهرة ـ ١٣٧٨ هـ .

وكان هناك عداء مزمن بين الفقراء والأغنياء • فثار الأرقاء أكثر من مرة على سادتهم ، ونفر المزارعون الصغار في ايطالية وغـيرها وأحرقوا المزارع الكبيرة التي أنشأها كبار الملاكين • بيد أن الأرقاء لم ينظموا صفوفهم • ولم يكن لديهم في وقت من الأوقات برنامج سياسي معين يسعون لتحقيقه ، وجل ما بلغوا اليه أنهم كرهوا أسيادهم وثاروا في وجوههم وتمنوا زوال نعمتهم ، وذلك بعمليات متفرقة في غالب الأحيان •

وأدى توسع رومة في الشمال والجنوب والشرق والغرب ، الى توسع مماثل في أفق أبنائها العاملين في حقلي الصناعة والتجارة ، فخرجوا من ايطالية الى الولايات الجديدة يوظفون أموالهم فيها ، وقام من أبناء هـذه الولايات نفسها ، ولاسيما الشرقية منها ، من شاطر هؤلاء عملهم وانتاجهم ، فنشـطت الزراعة والصناعة والتجارة في الولايات • ومع الزمن ، فقدت ايطالية سيطرتها الاقتصادية التي كسبتها في حروب التوسع المتتالية ، وقـل انتاجها الصناعي وتدنى ، فأصبح في مستهل القرن الثالث الميلادي قليلا ، فقل الدخل عموماً وقل دخل الدولة ، لتأخر الصنـاعة والتجـارة وانحسـار دخلها ومواردها وارداتها •

وكانت الخدمة العسكرية في أوائل عهد رومة محصورة في المواطنين الرومانيين ، ولما جاء يوليوس قيصر منح حقوق المواطن الروماني بعض وجوه الولايات وأعيانها، وقضت ظروف الحرب والاستيلاء والتوسع بتكبير الجيش، فجندت رومة أبناء الولايات في وحدات مساعدة ، ثم تساهلت رومة مع كل من لمست فيه استعداداً لتفهمها والامتزاج بأبنائها ومنحته هذا الحق الكبير • وفي سنة (٢١٢م) أبيح هذا الحق لجميع سـكان الامبراطورية ، فأصبح الجيش مؤلفاً من جميع عناصر حوض البحر الأبيض المتوسط ، مما أدى الى انحطاط الجيش الذي أصبح ضخماً في كميته هزيلا في كيفيته •

كما أن التوسع العسكري الكبير ، أدى الى تغيير آخر في الجيش ، فالحدود الشاسعة الطويلة ، والاعمال الحربية المتتابعة ، قضت بتطويل مدة الخدمة العسكرية • والانحطاط الاقتصادي اضطر الحكومة الرومانية الى أن تقطع جنود الحدود أرضا يحرثونها ، وأن تجيز لهم أن يتأهلوا ويقيموا في أكواخهم قرب الحدود ، فقضى الجنود حياتهم بأكملها في خدمة الجيش ، وأصبحوا طائفة عسكرية تعيش لنفسها لا جيشاً من الشعب يقوم بخدمة الدولة •

كما عجل كثيراً في انحطاط الجيش ، أن الجند أصبحوا يختارون من يرضون عنه ليصبح امبراطوراً ، ويعزلون من لا يرضون عنه ويعينوا مكانه غيره ، كما أمسى الامبراطور نفسه قليل المهابة والاحترام ، وهذا أدى الى انهيار الضبط والربط في الجيش ، ولا قيمة لجيش لا يتحلى بالضبط العالي والربط المتين •

وكان الامبراطور في بدء الامر وجيهاً رومانياً كبيراً خول سلطة عسكرية واسعة في ظروف حربية قاهرة ، وكانت هذه السلطة أو القيادة تنتهي بانتهاء الحرب • ثم جاء الامبراطورية بطولها وعرضها وتعددت مشاكلها ، فوكلت رومة القيادة الى رجل واحد طوال عمره • وبقيت سيادة الدولة الرومانية تظل هذا الامبراطور الفرد ومنها يستمد سلطته ، وبقى هو ممثل الجمهورية الاوحد ، واستحق لقب : (أوغوسطوس) أي قديس لأنه كان في نظر الرومانيين رمز آلهة رومة الحي • وانحصرت السلطة التشريعية بيد مجلس الشيوخ ، وكذلك ادارة الدولة وفرض الضرائب وجبايتها ، ولما كانت القوة العسكرية بيد الامبراطور ، كان من الطبيعي جداً أن يتطاول على حقوق مجلس الشيوخ في نطاق سلطته ، وأن تتدرج الدولة الرومانية الجمهورية في سلم الملكية •

وتبين أن الجيش بعد أن انفصل عن الشعب الروماني وأصبح خليطاً من كل من هب ودب ، بقي يمارس سلطة هائلة في انتقاء الامبراطور بالمشاركة مع مجلس الشيوخ ، ولكن هذه السلطة أصبحت غاشمة بعد انحطاط الجيش •

وتساقط الاباطرة واحداً بعد آخر قتلا بأيدي جنودهم أو بأيدي جنود أعدائهم ، وتكاثرت الحروب على الروم ، وتصاعدت الافكار الفلسفية التي فرقت الشعب دون جدوى •

وظهرت المسيحية ، فعانت ما عانت من اضطهاد الروم ، ويشير المؤرخون عادة الى عشرة اضطهادات بين سنة أربع وستين للميلاد الى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة الميلادية [٦٠] ، حيث كانت سنة البراءة التي تنفس فيها المسيحيون الصعداء •

فقد تنصر قسطنطين الكبير (٢٨٠ ــ ٣٣٧ م) سنة (٣١٢م) ، فظهرت رسوم مسيحية على مسكوكاته ، وجعل شارة الصليب على رايتــه ، واهتم بالنصارى واعتنى بهم ، وحرم التبشير باليهودية والدعاية لها سنة (٣١٥م) ، وأصبح حبر الأمة الأعظم يرعى جميــع الاديــان وبخاصة المسيحية ، ولكنه لا يكره أحداً على أن يذهب مذهبه ، ولكل من رعاياه أن يتبع الرأي الذي يراه •

وقضت ظروف قسطنطين السياسية والعسكرية ببقائه في الشرق أكثر من الغرب ، فعزم على انشاء عاصمة في الشرق تسهل الــدفاع عن الولايات الغربية والشرقية ، ووقع اختياره على بيزنطة ، ولا نعلم بالضبط متى خطط قسطنطين عاصمته الجديدة ، ولكننا نعلم أن تدشينها جرى في الحادي عشر من أيار سنة (٣٣٠م) ، وسماها : رومة الجديدة ، ولكن الشعب أطلق عليها

---

(٦٠) الروم (٩ ــ ٣٣) ، حول التفاصيل .

اسم : القسطنطينية [٦١] .

٢ ـ الحياة الاجتماعية :

كانت الهوايات والنزعات في الامبراطورية البيزنطية الشرقية دينية ، وكانت الامور من سياسية واجتماعية تلبس ثوباً دينياً .

لقد كان البيزنطي يعيش في عالم تملأه وتسيطر عليه القوى الخفية ، فكانت عطلاته أعياداً دينية ، وألعابه في الملعب تستهل بالتراتيل الدينية ، وعقوده التجارية توسم عليها علامة الصليب أو تحتوي على ابتهال للثالوث المقدس . واذا أراد أن يستخير الله لم يفعل ذلك الا عن طريق النساك أو عن طريق الرؤى الذي يتمثل فيها القديسون الأموات . وكان يتخذ من التمائم المقدسة تعاويذ له ، ويرى في الغبار المحتوي على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة أنجح دواء عنده . وكانت حروبه صليبية مقدسة وامبراطوره خليفة لله في أرضه ، وكل حادثة مروعة في الطبيعة فهي اما نذير أو بشير ليثنيه أو يحفزه .

وكانت النتيجة لهذه النظرة أن أصبح العلم متهماً ، فقد وجد أحد أطباء العاصمة أن نسبة الوفيات عالية في الطبقة العاملة الذين يعيشون في مساكن تحت الارض ، وكان ذلك في طاعون القرن الرابع الميلادي ، فأعلن للملأ أن ذلك سببه قلة الهواء النقي ، فاتهم الطبيب بالكفر ولما أصيب الطبيب بالمرض وقضى نحبه ، انتصر رجال الدين المسيحي ، واعتقد الناس أن موته كان عقاباً له على زندقته .

والحق أن البيزنطي تحول بالسليقة الى القديس بعد أن عاين عجز

(٦١) الروم (٥١ ـ ٦٤) ، حول التفاصيل .

الطبيب ، وبعد أن كان الناس ينامون في الهياكل الوثنية ليبرأوا من أسقامهم، أخذ المسيحي حينئذٍ يتردد الى الكنيسة أو الى مقام أحد الشهداء ، وتولى الملاك ميكائيل مهمة شفاء الناس التي كان يتولاها الاله القديم في المعبد ، وأخذ القديس المسيحي يحل محل الاله الوثني الذي كان يدرأ الأذى عن المدينة •

وهذا الشعور المستمر بوجود القوى الخفية ، هو الاطار الذي كان يعيش فيه الانسان البيزنطي ، ذلك أن ميله الى اللاهوت كان يظهر في كبار الأمور وصغارها ، وكان العالم المحجوب عن الأبصار يدور معه في الآجلة والعاجلة •

ولم يكن ساكن العاصمة يعيش في جو ديني حسب ، ولكنه كان يعيش في جو خطر ، ولاشك في أن أعصابه كانت في بعض القرون تحيا في توتر مستمر ، لأن مدينته كانت تقاسي حصاراً بعد حصار • ومما لاجدال فيه أن الامبراطورية الرومانية في الغرب سقطت لأن أعداءها فاقوا جيوشها عدداً ، ولو تيسر للمدافعين يومئذ البارود والمدفع لباءت هجمات أعدائهم بالاخفاق ، لأن ذلك السلاح كان يكفي ليسد العجز العددي عند الرومان • وكانت أسوار القسطنطينية تمثل للشرق بمعنى من المعاني المدفع والبارود اللذين حرمتهما الامبراطورية الغربية ، فآل أمرها الى الزوال • ولكن لابد للأسوار من رجال، واذا كان المدافعون عنها فئة قليلة ، فلابد من أن تلعب الخدعة والحنكة والخيانة الصراع — اذا دعت الحاجة اليها — دورها بالنيابة عنهم • وهكذا مال الخلق البيزنطي الى ألوان من الدهاء لاتعرف المبادىء ولا حدود الأخلاق ، تلك الخصال التي نستطيع أن نلمسها حتى في الشخصيات والناس عامة • ونستطيع أن نقرر من غير حرج ، أن النفعية الذاتية التي انغرست في النفوس دون شك ، كانت شائعة في الروم الشرقيين رفيعهم ووضيعهم •

ذلك أن التوتر الدائم له رد فعل ، هو الافراط في التراخي •

ومن العبث أن ننكر ، أن العنف والوحشية والجور ، وهي خصال كانت متأصلة في نفوس البيزنطيين ، كانت تلعب دوراً كبيراً ، فقد كان جمهور العاصمة ينظر باستخفاف الى قيم الحياة البشرية نتيجة لسخطه على الساسة الذين أبغضهم بغضاً مريراً ، ونتيجة للسهولة التي كان التحريق والقتل يقترفان بها أمام أعينهم كلما وقع شغب وهياج • وزادت الحكومة سوءً ، فضربت للناس أسوأ المثل في هذه الناحية ، بما كانت تطبقه من معاقبة المجرمين بتوقيع عقوبات تقوم على قطع الجوارح ، كقطع الأيدي ، وجدع الأنوف ، وسمل الأعين •

وعلى الرغم من الخطر المحدق بالعاصمة دوماً ، كان البيزنطي يتطلب لنفسه تسلية ومرحاً ، وكانت مراكز الحياة الثلاثة في العاصمة هي : القصر ، وميدان السباق ، والكنيسة • فاذا أغلقت الحمامات وأقفلت أبواب ميدان السباق ، فقدت الحياة عند البيزنطي بهجتها ، وأصبحت تافهة ضحلة لا غناء فيها •

وكان المتسابقون يعيشون في عالم تسوده الخرافات الوثنية ، حتى لقد كانوا يحاولون بالتعاويذ السحرية والتمائم أن يقيدوا منافسيهم برقى حتى يفوزوا دونهم ، وكثيراً ماكان السائقون يفتشون قبل بدء السباق حتى لاتكون معهم الخرزة السحرية التي تكفل لهم الفوز دون استحقاق ، مع كثير من الشعوذات الأخرى •

وكان ميدان السباق مكاناً تعرض فيه الانتصارات الامبراطورية ، حيث كان الأباطرة يضعون الحذاء الأرجواني ـ رمز السيادة ـ على رؤوس المنافسين المقهورين أو الأعداء المغلوبين • كما كان أيضاً محكمة جنايات ،

يتخذ فيها القضاة مجالسهم بانتظام • حتى ان الأمبراطور اذا اقتنع بارتكاب أحد الحكام جريمة من الجرائم ، قضى على المجرم أن يحرق حياً على مرأى من الرعية • وكذلك كان الملعب مسرحاً لتلك المواكب التي اعتاد الناس أن يروا فيها رجلاً من رجال البلاط أو رجال الدين المغضوب عليهم ، يسار به بين صفوف الشعب الساخر ، وربما أركب حماراً وجعل وجهه الى ذيله • كذلك كان الملعب متحفاً فيه روائع فن النحت القديم ، حيث كان رجال الكهنوت في الكنيسة المسيحية ، وقد رضوا عما يجري في الملعب كان الملعب مرآة للعالم البيزنطي •

وكان للرجل البيزنطي بطلان هما : الفائز في سباق العربات ، والقديس المتقشف • أما الأول ، فكان تنصب الصور والتماثيل اجلالاً له في كل مكان، وكان سائق عجلة السباق يمنح امتيازات خاصة ، فكان في نجوة من كل عقاب بدني ، واليه كان رجال الأدب يرفعون أحسن مقطوعاتهم •

أما المتقشف الزاهد ، فكان الحجاج يأتون اليه من كل صوب ، يحدوهم شوق لاهف ليروا القديس على عموده ، وينالوا بركته ، وليحملوا معهم تمثالاً صغيراً من تماثيل الرجل الطاهر ، التي كانت تصنع لتباع بالجملة لكل من يطلبها من الاتقياء • وهذا التمثال مع القنديل المعلق به ، كان يحمي دكان المتبرك وبيته من كل أذى ، ويعطيه ثقة جديدة وشعوراً متجدداً بالاطمئنان وسط أخطار الحياة •

وكان هناك وحدة في الأسرة واخلاص متبادل بين أفرادها • والمرأة ربة البيت ، ولها نفوذها الملموس في مجال عملها على زوجها وأطفالها • وكانت البنت تتزوج في سن مبكرة ، وكان اختيار الزوج مما تعنى به الأسرة، وقلما كانت البنت ترى زوجها قبل الزواج • على أن المرأة البيزنطية لم تكن

سجينة بيتها على أية حال ، على الرغم من أن الحرائر المحصنات لم يكن يرتدن دور التمثيل • وكانت نظرية الروم عن السيادة لاترى غضاضة في زواج الأمير بأمرأة لايجري في عروقها دم الملوك ، بل كثيراً ماكان النسل الامبراطوري يتقوى باختيار عروس من الطبقات المتوسطة ، حتى كان الامبراطور أحياناً ينتخب شريكة حياته من بين سرب العذارى الجميلات اللواتي انتقين من الولايات لتلك الغاية [٦٢] •

٣ ـ السيادة البيزنطية :

جمعت السلطة النافذة داخل حدود الامبراطورية البيزنطية في شخص الامبراطور ، فكان هو مصدرها الأوحد • ولكن ظل حق الامبراطور في العرش يخضع للانتخاب طيلة تاريخ الامبراطورية ، فكان مجلس الشيوخ والجيش ينتخبان الحاكم : الجيش يمارس حقوقه الوراثية في تنصيب الملوك، والشعب يؤيد ذلك ، فكان باستطاعة مجلس الشيوخ أو الجيش أن يتقدم أحدهما فيعين مرشحاً ، ثم يزكيه الطرف الآخر • أي أن انتخاب الامبراطور كان يمر بالأدوار التالية : (١) ينادي مجلس الشيوخ أو الجيش بوضع المرشح «في وضع دستوري يجعله في مكان الامبراطور المنتظر ، على أن يكون من الجائز بعدئذ تثبيت ذلك أو الغاؤه »• (٢) أن يوافق الطرف الآخر على ذلك، لأنه يملك الحق ذاته في الترشيح • (٣) التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الروماني الذي يجتمع عادة في ميدان السباق [٦٣] • (٤) تتويجه

(٦٢) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية (١٦ ـ ٣٩) .
(٦٣) كان تتويج الاباطرة منذ القرن السابع يجرى فيالكنيسة الكبرى ، ويحضره اعضاء مجلس الشيوخ وممثلون عن الجيش والشعب الذي يهتف للامبراطور داخل الكنيسة وخارجها ، وكان التتويج قبل القرن السابع يجرى في ميدان السباق خارج المدينة .

بالتاج على يد البطريرك الأعلى قائماً بتمثيل المنتخبين لا الكنيسة ••• وقد جرت العادة بذلك وان لم يكن شرطاً أساسياً •

تلك هي الاجراءات التي ينص عليها التقليد الدستوري في منح السلطان لأحد من الناس ، لكنها لاتكفل له سوى لقب بشرى • بيد أن عرش الامبراطور كان يقوم على أسس أكثر رسوخاً ، فالامبراطور صفي الاله ، وقد وقع عليه الاختيار منذ ولادته لتحقيق ارادة السماء ، واذاً فالمرشح الناجح هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التي اكتسب بها هذا النصر ، فنجاحه هو المسوغ الوحيد ، وهذا النجاح يطمس صفحة ماضيه ، وهـو الأساس الذي يلزم الناس بطاعته •

واذاً فمن الواضح أن الامبراطور ملك كاهن ، ومنصبه كهانة ملكية ، وما الامبراطور الا أحد رجال الدين ، فهو يستطيع أن يدخل المعبد المقدس ، ويقترب من المذبح حيث لايسمح لأحد من العلمـانيين (غير رجـال الدين) بالمرور • وفي استطاعته أن يقبل ستار المذبح ، وأن يتناول بيده الخبز المقدس• وعهدت له العناية الالهية ــ كما عهدت لبطرس من قبل ــ في رعاية أتبـاع السيد المسيح ، ولكن يظهر هذا الجانب من كهانة الامبراطور بوضوح أكثر ، أضيف منذ القرن التاسع الميلادي ــ على ما يظن ــ عمل آخر رمزي في حفل التتويج ، الا وهو أن يقوم البطريرك بمسح الامبراطور بالزيت المقدس ، ولم يكن يعبر بذلك عن ارادة الدولة ، بل عن المشيئة الالهية •

غير أن النظرية (الالهية) في أصل الملكية كانت تحمل في طياتها نتيجـة أبعد مدى ، فمصدر الرفعة هو الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، واذاً فالعرش الامبراطوري مباح للجميع ، فلاحهم ونبيلهم ، جاهلهم وعالمهم ، على السواء ، غير أنه اشترط في الامبراطور أن يكون مسيحياً ، وأضيف بعد ذلك أن يكون

مسيحياً أرثوذكسياً ، وفيما عدا ذلك يمكن لأي واحد من الناس أن يقع عليه اختيار الله عظيماً كان أم حقيراً غنياً أم فقيراً •

بيد أنه لم يكن هناك من سبيل دستوري لاسقاط الامبراطور بعد انتخابه سوى ثورة ناجحة ، وهنا أيضا لايحول اختيار العناية الالهية له ، دون أن يعتبر مجرد غاصب في حالة اخفاقه ، واذاً فالثورة تصبح مشروعة ، بل وجزء من الدستور المعمول به •

بيد أن اختيار الأباطرة بطريق الانتخاب وحده ، لم يكن ليضمن للناس سير الأمور سيراً حسناً ، مادام اغتصاب العرش مباحاً في هذه الدولة ، ولايعتبره الناس خيانة الا في حالة الاخفاق ، ثم اننا لاينبغي أن ننسى أن هذا الاغتصاب كان يدعم القوة الامبراطورية في بعض الأحيان • ومن ثم عدلت النظرية الرومانية القديمة ـ فيما يختص بطريقة اختيار الحاكم الأعلى للدولة ـ كما يلي : ان تفويض الحكم للامبراطور ، يخوله حق تتويج خلف له أثناء حياته ، ويظل مستبداً وحده بالسلطان طالما بقي في قيد الحياة ، رغم وجود خليفة الى جواره ، فاذا توفي انتقل السلطان الى خليفته من تلقاء نفسه » •

وهكذا فقد المنتخبون حق الانتخاب ، ولم يبق أمامهم الا ان يحبوا الحاكم الجديد ، قائلين : « مات الملك ، يحيا الملك ! » •

وقد كان مما يميز الأباطرة الشرقيين العسكريين كفايتهم العسكرية كقادة للجيوش في ميادين القتال •

ولم يكن الامبراطور ملك الملوك (٦٤) ، كما كان يسمى رسمياً بعد سقوط الامبراطورية الساسانية ، التي كان كسرى المنازع الوحيد له في هذا

(٦٤) اي الباسيليوس Basileus

اللقب ، فقد قال المسيح : « انه وارث هذا العـالم » ، فعلى نـائبه ــ وهو الامبراطور ــ أن يرعى ادخال العالم في دائرة ملكه • أليس هو الآخر مخلصاً للعالم ؟ أليست قوته هي المدبرة له ؟ اذاً فهو الحاكم الأعلى ، وله الحـق في السيادة على العالم كله •

ولم يكن الأمر ليقف الى هذا الحد ، فانـه لما كانت مملـكة الأرض مصوغة على مثال مملكة السماء ، اذاً فهي ليست عالمية فحسب ، بل خـالدة أيضا ، وليس باستطاعة بشر أن يقوض دعائمها • أما الأباطرة الفاسدون ، فليسوا الا عقاباً الهياً للناس ، حتى اذا انتهت مدة عقاب البشر ، وتاب أهـل البلاد عن خطاياهم ، أشرقت شمس رحمة الله مرة أخرى ، وهكذا تصبـح المسيحية مصدراً دائماً لبعث جديد ، وكانت هذه العقيدة راسخة قبل المسيحية في رومة ، فاستحال ذلك الى عقيدة دينية •

واذا كان الأمر كذلك ، فما هي القيود العملية والنظرية التي تحد مـن ادعاء الأباطرة السيطرة على الكون ؟

بالرغم من أن الأمبراطور هو المشرع الأعلى ، وبالرغم من أنه لايسـأل عما يفعل ، فقد كان عليه لهذا السبب ذاته أن يلزم نفسه بمراعاة القوانين • ولا ننسى أولئك الذين كانوا يحيطون بالامبراطور ، فهم رجال فقهوا التقاليد المحافظة ، تقاليد هيئة الحكم الشديدة التعقيد • وقد أصبح مجلس الشيوخ ــ اذا استثنينا ممارسته لسلطته القديمة في تنصيب الملوك ــ مجلس حكام يفضلون السبل المطروقة ، ومن المؤكد أن الأباطرة لم يعدموا كثيراً من الحكماء والناصحين ، وجدوا من الحكمة ما جعلهم يأخذون بنصحهم •

وقد كان سكان العاصمة أيضاً الى جانب حرس المدينة الرسمي ، حـتى القرن السابع الميلادي على الأقل ، يكونون قوة فاعلة ، وكانوا على قوة تمكنهم

من الاخلال بالأمن اذا ما فقدوا سيطرتهم على أنفسهم ، وعلى استعداد لتقديم مرشح آخر ينافس صاحب العرش ، ونشر الفوضى عن طريق الحرق والقتل . والظاهر أنه حين خدمت المقاومة الشعبية المنظمة لارادة الامبراطور زمن بيت هرقل ، أقام الرهبان أنفسهم نواباً للشعب ، وحملوا لواء المقاومة ضد الأباطرة، واستطاعوا أن يعتمدوا على مؤازرة الأتقياء ، وأثبتوا أنهم خصوم أشد خطورة على الامبراطور من البطريرك الذي كان بأمكان الامبراطور أن يعزله. واستطاع الجيش أيضاً أن يوقف بعنف أي اجراءات لايرى تنفيذها ، اعتماداً منه على قوته .

الا أن هناك قيداً آخر أعمق مما ذكرناه ، ذلك هو التأثير الخفي لتقليد يفترض في الأباطرة : (حب الخير للناس) ، يحتم على الامبراطور اسداء خدمات انسانية جليلة لشعبه ، وكان هذا المثل الأعلى – في الواقع – قوة كابحة لجماح الامبراطور .

وأخيراً ، كان المنتخبون ، قبل أن يوافقوا على منح أحد من الناس السلطة الامبراطورية ، يستخلصون منه وعداً صريحاً بمراعاة ذلك . ومع مضي الزمن ، أخذ الامبراطور عند تتويجه يقسم قسماً رسمياً ، يبدأ بالاعتراف بالعقيدة الأرثوذكسية ، ويتضمن توكيداً منه لمنشورات بطارقة العالم السبعة ومجامع دينية محلية أخرى ، وحقوق الكنيسة وامتيازاتها ، وبعد بأن يظل خادماً مخلصاً للكنيسة المقدسة ، وابناً باراً بها وحاميا لها ، ويأخذ عهدا على نفسه بأن يظل انسانيا في حكمه لشعبه ، عادلاً بينهم ، وأن يتجنب توقيع عقوبات التنكيل بالناس أو الحكم بالاعدام ما استطاع الى ذلك سبيلا ... وصيغة القسم من الأهمية بمكان ، بحيث تظهر لنا ماكان يتطلبه البيزنطيون من حاكمهم .

زعيم الخزار ، فيعتنق المسيحية ، وسيقوم الامبراطور نفسه بدور الأشبين عند الحوض المقدس ، ومن ثم ينتدب أحد الأساقفة من أتباع بطريرك القسطنطينية للاشراف على مصالح الروم في بلاده • وفي حالة قيام شعبه ضده واسقاطهم له ، يسمح له بالالتجاء الى الامبراطورية ، ومن ثم يعاد بحراب الروم الى مركزه ، وفي هذه الحالة لايبقى عند رجال الدولة ريب في اخلاصه•

ومع أنه لم يكن للامبراطورية ممثلون دائمون لدى الحكومات الأجنبية، الا أن بعثاتها كانت تتوالى ، فتحفظ تقاريرها في ديوان الرسائل الامبراطورية (٦٥) •

٤ ــ الكنيسة الأرثوذكسية :

لم تكتب الحياة لطقوس رومة الشرقية فحسب ، بل احتفظت الكنيسة حتى اليوم بطبيعتها التي اكتسبتها أيام الأباطرة المسيحيين : فآراء هذه الكنيسة في اللاهوت ، وشعائرها ، وصيغها التي كانت تلقى أثناء المراسم الدينية ، ولون حياة الرهبنة والتقشف ، وقديسوها وأعيادها ، ذلك كله تراث من أيام البيزنطيين ، لاتزال تبقي على سلامته روح المحافظة التي لاتلين •

أصبحت القسطنطينية في عصر قسطنطين مدينة مسيحية ، الا أنها ظلت فيما يختص بحق التشريع الكنسي تخضع لأسقف هرقلة ، ونجد أن التاريخ الداخلي للكنيسة بعد أن اعترف بها مجلس الشيوخ ، يكاد يكون سرداً لجهاد أسقف القسطنطينية في سبيل الظفر باستقلاله عن مطران هرقلة من جهة ، وفي سبيل سيطرته على منافسه في الاسكندرية من جهة أخرى • ولقد خرج بطريرك رومة الجديدة منتصراً ، وشاركه الامبراطور هذا النصر ، فقد رأس

(٦٥) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية (٧٣ ــ ٩٤) •

جستنيان الكنيسة كملك كاهن ، وأصبحت عاصمته مركز حيـاة الكنيسـة وتنظيمهـا •

وكان اذا رغبت احدى الأسقفيات في تقديم نفسها على غيرها من مثيلاتها، نظر الناس فيما اذا كانت قد أسست على يد أحد الرسل ، وكان هذا المقياس المعترف به في تقديم الكنائس بعضها على بعض • أما الشرق ، فقد حاول أن يجد تسويغاً لهذا النظام ، وانتهى الى النظرية القائلة : بأن اسبقية المدينة في الميدان الكنسي لابد أن تقوم على أسبقيتها في الميدان المدني • وسعت بيزنطة بعد ذلك الى الأنتصار على رومة • بحجة أخذتها من منطق رومة نفسها ، فاذا كانت رومة تقول بأن القديس بطرس هو مؤسـسها ، فقد اكتشفت رومـة الجديدة أن باستطاعتها في اعتمادها على تزوير وقتي ، أن تدعى أن القديس ادريس (اندرياس) هو مؤسسها ، والقديس ادريس هو الذي أحضر بطرس الى المسيح لأول مرة • غير أن قساوسة المجمع الديني العالمي الثاني الذي عقد في القسطنطينية سنة (٣٨١م) ، اعترفوا بالنظرية القـديمة اعترافاً صـريحاً ، وحكموا لأسقفية العاصمة بالمكان الاول في الكنيسة الشرقية بعد السـدة الرسولية في رومة : « لأن القسطنطينية هي رومة الجديدة » ، وبذلك تحررت مدينة الأباطرة من سيطرة هرقلة •

وقد نشأت خصومات داخل الكنيسة ، نتيجة لتصميم أساقفة الاسكندرية على أن يستخدموا تأثيرهم وسيطرتهم في مقاومة قوة القسطنطينية الكنسية الناشئة ، وقد انتصرت الاسكندرية ثلاث مرات على القسطنطينية[٦٦] ، وأخيراً هزمت الاسكندرية في مجمع خلقيدونية سنة (٤٥١م) ، لأن البابا والامبراطور صمما على تحطيم كبرياء مصر ، لكن بطريرك الاسكندرية لم يذعن ، فخلع

(٦٦) انظر التفاصيل في كتاب : الامبراطورية البيزنطية (٩٩ ـ ١٠٥) •

وتقي ، وكان هدف مجمع خلقيدونية انتصار القسطنطينية والانحياز الكلي للكنيسة الشرقية .

وأجاز المجمع الصيغة الغربية التي نقحها البابا ليو الكبير واوردها في رسالته العقيدية المسماة : Tomos حيث قال : « هناك طبيعتان يجب تمييز احداهما عن الاخرى في المسيح حتى بعد تجسده وهما الالاهية والانسانية ، وقد ظل الاختلاف بينهما باقيا بالرغم من وحدة الشخصية » . وكانت وجهة النظر اللاهوتية عند الاسكندريين تتجه دائماً الى الصوفية والرمز ، وتؤكد طبيعة المسيح المقدسة ، حتى انها لتهمل طبيعته البشرية ، وهكذا ابتلعت الناحية المقدسة الجانب البشري ، وبذلك وصلت الكنيسة المصرية الى اعتقادها بطبيعة مقدسة واحدة . وهكذا وقفت الفئة التي أسست الكنيسة القائلة بطبيعة واحدة صفاً واحداً في مقاومة التعريف الذي انتهى اليه مجمع سنة (٤٥١م) وفي نبذ عقيدة البابا ليو الكبير ، وعلى هذا فقد انتهى بالناس الى الحرب لا الى الصلح .

لقد وحد منشور (زينو Zeno's Henoticon بين الكنائس الشرقية سنة (٤٨٢م) ، الا أن ثمن ذلك كان الانشقاق عن رومة سنة (٤٨٤م) ، كما أسس يعقوب البردعي (Jacobus Baradaeos) أسس الكنيسة اليعقوبية المستقلة في حكم جستنيان . وسعى بيت هرقل مرة أخرى لايجاد اتحاد مع أصحاب العقيدة المقدسة الواحدة غير أن العقيدة القائلة بالقوة الناشئة عن طبيعة واحدة أو ارادة واحدة في المسيح المتجسد لم يكن باستطاعتها الثبات طويلا ، ولم تكف هذه المعضلة عن ازعاج سياسي الامبراطورية البيزنطية ، الا حين استولى المسلمون على سورية ومصر مؤئل الهراطقة ، واستطاعت الامبراطورية بعد ذلك أن تكون أرثوذكسية ، وهكذا استطاع جستنيان الثاني

أن يعقد الصلح مع رومة •

وعندما أصبحت البطريركيات الرومانية الشرقية اسقفيات في بلاد المسلمين ، بقي بطريرك القسطنطينية بلا منازع ، وأصبح تشريعه يسري على الامبراطورية ، الا أن بطريرك العاصمة عاش في ظل القصر الامبراطوري • وكان اخفاق بابوات الغرب في نزاعهم مع كنيسة القسطنطينية ، قد علمهم كيف يحلون المعضلة الدوناتية(٦٧) ، ولم يعد امبراطور الدولة البيزنطية يستطيع بعد ذلك أن يترك للسلطات الكنسية حكومة الكنيسة غير المنظمة ، فقد أبان منشور الامبراطور الذي دعا به الى عقد مجمع نيقية ووجهه لخلفائه ، الطريق بحيث لم يعد بمقدور أي بطريرك لرومة الجديدة أن يقاوم الارادة الامبراطورية ، وتوالت التشريعات في محاربة الهراطقة من جهة والوثنيين من الخلقيدونية ، وانتصار فكرة توحيد الكنيسة ، ختاماً للنزاع الذي قام من أجل السيادة داخل الكنيسة الشرقية •

وشهد القرن السادس الميلادي آخر هجوم شن على الوثنية الباقية في الامبراطورية ، وتوالت التشريعات في محاربة الهراطقة من جهة والوثنين من جهة أخرى خلال أكثر من مائتي سنة ، واستعمل قسطنطين العنف في القضاء على الدوناتيين الافريقيين بحجة أنهم مهددون للأمن أكثر منهم مارقين على العقيدة • وجعل بين السلطة وبين الاشتراك لوظائف الكنيسة ، ونفوا من القسطنطينية وحرم على الوثنيين حق الوراثة والتوريث ودخول وظائف البلاط والجيش ، وجرد الهراطقة أيضاً من حق دخول الجيش • وبالرغم من أن

(٦٧) الدوناتية : فرقة نصرانية ظهرت في افريقية في العصر البيزنطي ، وهي منسوبة الى أسقف يسمى : دوناتوس ، عارض أسقف قرطاجنة ، والتف حوله طائفة من القساوسة ، وتكونت منهم فرقة دينية ، ظلت تناوىء كنيسة قرطاجنة حتى ايام جستنيان .

الهراطقة كانوا يؤدون ما يقع على غيرهم من المواطنين من أعباء ، فقد حرم عليهم التمتع بامتيازاتهم • وحرمت عليهم قوانين جستنيان الاشتغال بالمهن الحرة ، بل تقرر هدم كنائسهم ، وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة ، وأصبحت شهاداتهم القانونية ضد الأرثوذكسيين غير مقبولة ، وأضحت وصاياهم لاغية ، وفقدوا ما يخولهم حق الوراثة ولو بوصية اختيارية ، وحق وراثة شخص توفي دون أن يوصي ، فأصبح المنشق عن الكنيسة منبوذ المجتمع • وكانت سياسة جستنيان فيما يختص بالمانويين (أتباع مذهب ماني) سياسة ابادة ، فخصائص الروح فوق خصائص الجسد ، واذاً يجب القضاء التام على كل ما من شأنه أن بسبب العدوى •

ويمكن تلخيص آراء جستنيان في الحكومة بالعبارة الموجزة : حكومة واحدة ، وقانون واحد ، وكنيسة واحدة •

وقد صدرت سلسلة أخرى من القوانين ضد الوثنية ، وأدخل في القرن السادس الميلادي ألوف من الوثنين في المسيحية قسراً دون أن يعتنقوها فعلا • ونتج عن تلك التشريعات دخول كثير من غير المسيحيين في المسيحية ، بيد أن الغالب من هؤلاء المتنصرين الجدد كانت رهبتهم للاله المسيحي ناتجة عن خوف من الناس ، في حين ظلت قلوبهم في وادٍ آخر ، اذ ظلت على ولائها للعقيدة القديمة •

وهكذا انحطت المقاييس الأخلاقية والدينية داخل الكنيسة ، وشعر الناس أن الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المتشددة ، فأخذوا يجاهدون في سبيل الافلات من عالم لا يحتمل في نظرهم ، وامتلأت صحارى مصر بطالبي العزلة الذين يبغون الوصول الى الله ، غير أنهم لم ينفصلوا عن الكنيسة المنظمة انفصالا فعلياً، لكنهم كفوا أنفسهم بأنفسهم، وكانوا في غنى عن حظيرة

الكنيسة • وهكذا قامت الرهبنة منفصلة عن الكنيســة ، وكانت من ناحية احتجاجاً فردياً على نظام قام بأكبر نصيب في تأييد الدولة • ولما كانت الكنيسة تسعى لتركيز سلطانها في ادارتها الداخلية ، فقد قررت أن تحول دون بقاء أية حركة دينية خارجة عنها ، ولا مفر لأي لون من ألوان التدين من أن يؤيــد قضيتها ، واذا كان لابد من تكييف الحركة الجديدة بما يلائم أغراض الكنيسة، فأنها ــ أي الكنيسة ــ كانت مستعدة لترتيب معونة مالية مؤقتة توصلها الى أغراضها ، فاذا لم يخضع الميل الجديد الى التقشف لادارتها ، أصبح من اللازم عليها تحطيمه ، وأصبح على الزاهد أن يتصل بأولئك الذين يشاركون الاعتقاد بمثله العليا ، اذ أن ذلك يفسح المجال أمامه لممارسة فضائل المسيحية •

ومهما يكن من أمر ، فان مساكنهم التي اتخذوها لتنسكهم في الكهوف المنعزلة أو جعلوها معلقة فوق صــخور الجبال ، هو الذي ايقظ الشــعور بالاجلال والرهبة والحماسة العاطفية في نفوس عامة الشعب ، فهرع الحجاج من الشرق والغرب لالقاء نظرة على القديس العمودي الذي قضى سنين طويلة على عموده ، حتى فقد القدرة على الوقوف ، وأصبح لا يعينه على الوقوف سوى الرباط الذي يمسكه بعموده •

وسعت الكنيسة مرة أخرى لتحويل هذا التنسك المحبب الشائع لخدمة أغراضها بشتى الوسائل ، فكان نجاحها في هذا المجال محدودا •

وقد رأينا أن الحاج الى الأماكن المقدسة كان يعود حاملا معه تمثالا أو صورة للقديس ، وربما كانت هذه العادة من العوامل التي أعانت على تقوية عبادة الصور التي نشأ عنها نزاع اللاصورية الذي طال أمده •

وقد ضاعت كتابات اللاصوريين ، ونستطيع أن نتبين أسس مهاجمتهم لعبادة التماثيل مما كتبه خصومهم • فلم يكن محطمو الصور من أنصار المذهب

العقلي ، بل كانوا مصلحين دينيين ، فكانوا ينظرون الى شعور الناس بالتقديس نحو الصور والتماثيل نظرتهم الى عبادة الأصنام أو نوع من أنواع الوثنية .

ولم يكن عباد الصور أقل اخلاصاً لمبدئهم ، فالواقع أن كثيرين منهم نظروا للنزاع على أنه جهاد للبقاء ، فشعر صناع الصور المجيدون أن الخطر يتهدد مورد رزقهم ، لأنهم كانوا يعيشون من رسم الصور المقدسة . وظل بعض أنصار الصور ينافحون عن مبدئهم بحجة كان الشرق يقول بها في وقت مبكر منذ القرن الرابع الميلادي ، وأخذها الغرب فيما بعد ، الا وهي أن الصور المقدسة انجيل الجاهل ، فالصور ما هي الا مذكر ، وهي للنظر بمثابة الكلمات للاذن ، مهمتها الافهام والتقريب .

وأخيراً ، انتصر عباد الصور ، وعاشت الصور المقدسة في الكنائس بخاصة والأماكن العامة أيضاً .

وبقى هناك موضوع الخصومة مع رومة ، فقد اتسعت الهوة بين الشرق والغرب مع السنين ، حتى لقد انقطعت الصلة بين البلاطين الشرقي والغربي في أوائل القرن الخامس ، الا أن يكون بعض ما كان يثور بينهما من نزاع في اتصال أحدهما بالآخر اتصال عداء ، فكانت مشاكل الغرب والشرق في هذا العصر اللاهوتي مختلفة ، حيث أن نزعات قواد كنيسة الغرب كانت عملية تدور حول علاقة الانسان بالله ، فكانت مسائلهم تختص بتخليص الانسان أو تحريره من ارادته الانسانية ، ومضوا تحت تأثير أوغسطين ينشئون لعقيدتهم نظاماً خاصاً مقنناً . أما النزاع في الشرق فيدور حول علاقة أفراد الثالوث المقدس بعضهم ببعض ، ودار فيما بعد حول الطبيعة المزدوجة لابن الاله المتجسد . وكانت رومة هي الملجأ الأخير الذي تطلب عونه كل طائفة قليلة مغلوبة على أمرها في الكنيسة الشرقية ، وكان تدخل الغرب على ذلك في نظر الأكثرية

تدخلا تنظيميا من شأنه أن يقوم هرطقات الشرق ، فلم تكن كنيسة رومة على وفاق مع كنيسة القسطنطينية خلال نصف مدة القرون الخمسة التي تقع بين وصول قسطنطين للعرش والمجمع الديني العالمي السابع الذي عقد سنة (٧٨٧م)٠

وكان اختلاف اللغة بين الكنيستين أهم من ذلك كله ، فبينما كانت رومة الجديدة تقوم في وسط يتكلم اليونانية ، كانت ايطاليـة في القرن الرابـع الميلادي لا تعرف اليونانية ، بل تتكلم اللاتينية ، فكانت رسـائل البابوات للمجامع الدينية الشرقية تقرأ أولا باللاتينية ثم تترجم الى اليونانية لكي يتسنى لرجال الدين الشرقيين فهمها ، وكثيراً ما كانت تترجم ترجمة خاطئة ٠

ان الشرق والغرب لم يستطيعا التفاهم ، لأن كلاً منهما يجهل لغة الآخر٠

ولم يكن كبار البطارقة البيزنطيين في الحقيقة على اسـتعداد لأطاعة ما تمليه رومة ، فانتهزوا بشوق فرصة اكتسابهم محبة الشعب، وهاجموا مزاعم البابوية ٠ ولما كان البطريرك والبابا شخصيتين بارزتين في الوقت نفسه ، فقد نتج الانشقاق الديني عن ذلك ٠ وكانت رومة كثيراً ما تلقن القسطنطينية درساً في موضوع الأرثوذكسية ، ولكن بيزنطة حرصت على أرثوذكسيتها الخاصة بها ، واستطاعت أن تدافع عنها في وجه الغرب ٠

وقد حان الوقت لنتبين نواحي القوة والضعف في الكنيسة الأرثوذكسية٠

ان تدينها ينفرنا حين نقرأ أدبها اليوم ، اذ أنها علقت أكبر قيمة على فضيلة البكاء ، مدفوعة الى ذلك بشعور متجدد بالخوف من الخطيئة ، وفيض الدمع انما هو تأثر نفسي خاص بصاحب الترتيـل العاطفي بشـكل رئيس ٠ وان الانسان ليشعر أن فضيلة رجل الكنيسة البيزنطي ، انما كانت صادرة عن الامل بالجزاء في العالم الآخر ٠ كما أن الكنيسة الشرقية أخذت تشـك في القيم

الانسانية وتسعى لكبتها ، فقد اعتبرت الأدب الكلاسيكي القـديم خطـراً واعتبرت تلميذ أفلاطون في عداد الهراطقة ، وكان يعد خائنا • وكانت الكنيسة اغريقية ، فرضت اللغة الاغريقية على أتباعها ، وهكذا قضى على لهجات آسيا الصغرى الوطنية • وقد انقذت الكنيسة الامبراطورية البيزنطية ، ومالت في آخر الأمر الى السعي للتوفيق بين رغباتها ورغبات الدولة ، ولم تكن تفرض على الداخل في مذهبها أعباء كثيرة ، فكانت تبدى تسامحا كبيرا فيما يختص بعقيدته وعبادته السابقتين •

ولكن يجب أن نقرر أنها حددت للعالم المسيحي معاني العقيدة ، واذا كانت كنيسة تابعة للدولة الى حد بعيد ، فقد كانت مشبعة بروح تبشـيرية ، ونجد أن جميع الفنون البيزنطية التي كتب لها البقاء ذات طابع كنسي • واذا كانت هذه الكنيسة قد خضعت للدولة ، فان من رجالها من عانى التشـريد والعذاب والتنكيل من أجل العقيدة • وقد احتفظت الكنيسة في القرون المظلمة بجذوة الهيلينية حية تحت الرماد ، ولاتزال تلك الكنيسة على ولائها لاهدافها التي وضعتها منذ قرون خلت حتى اليوم •

للبحث صـلة

الفهرست

الصفحة

عرض الكتب

انباء وآراء

مجلـــة

المجمع العلمـي العراقي

انشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

تصدر اربعة اجزاء في السنة

سعر النسخة دينار ونصف

وتضاف اليها اجرة البريـد



توجه الرسائل والبحوث الى الامين العام للمجمع

- **البحوث والمصطلحات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .**
- **البحوث والمقالات التي لا تنشر ، لا ترد الى اصحابها .**

(العنوان : بغداد / الوزيرية / ص.ب. ٤٠٢٣)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٨٤

مطبعة المجمع العلمي العراقي ٣٠٠٠ / ١٩٨٤

الجزء الثالث   المجلد الخامس والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي



شوال ١٤٠٤ هـ
تموز ١٩٨٤ م